سلمان بن فهد العودة

مَع العِلْم

إن من حق الشباب على العلماء، أن يتلقوهم: فيفتحوا لهم القلوب، ويفسحوا لهم في المجالس، ويديروا لهم الحلَق، ويوطئوا لهم الأكناف. فطلاب اليوم هم علماء الغد، وصغار قوم كبار آخرين.



مَعَ العِلْم

د. سلمان بن فهد العودة

مَع العِلْم

د. سلمان بن فهد العودة

سلسلة إصدارات
الاسلام اليوم
الانتاج والنشر

الاصدار

19

الطبعة الاولى 1428



مؤسسة الإسلام اليوم
المملكة العربية السعودية
الرياض
ص.ب. 28577
الرمز : 11447
هاتف: 012081920
فاكس: 012081902
جدة:
هاتف: 026751133
هاتف: 026751144
بريدة:
هاتف: 063826466
فاكس: 063826053
info@islamtoday.net
www.islamtoday.net



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإن من أعظم ما يبهج في هذه الصحوة العامة هو نفرة طائفة كبيرة من شبابها ليتفقهوا في الدين، وليسلكوا طريق العلم؛ لتكون الصحوة في عمومها مؤصَّلة على العلم الشرعي الصحيح، متميزة بالبصيرة في العمل والدعوة.

وإن من حق هؤلاء الشباب على العلماء أن يتلقوهم: فيفتحوا لهم القلوب، ويفسحوا لهم في المجالس، ويديروا لهم الحِلَق، ويوطئوا لهم الأكناف، فطلاب اليوم هم علماء الغد، وصِغار قوم كبار آخرين.

ومن أهم وأجدى ما يُبَادأ به الطلاب في بداية مسيرهم هو إرشادهم إلى هذه الطريق، ومحض النصح لهم في سلوك طريق التعلم على نور وبصيرة، وأن يُجمع لهم بين الحث على سلوك طريق الطلب، والتحذير من مزالقه.

إن الغفلة عن مزالق طريق طلب العلم توقع في عثرات يصعب تلافيها في أحايين كثيرة، فيخفق الطالب في عرض الطريق، أو ينحرف عنه، فإن لطلب العلم نهمة ربما دفعت للعَدْو في هذا الطريق، والتعجل في قطف الثمرة.

وغير خافٍ على المتبصر أن لكل حقبة زمنية ظروفها وملابساتها التي توجب أن يُستجدَ طَرْق هذا الموضوع وفق ما يجدُ من أحوال.

ولهذا السبب ذاته تعاقبت كتب العلماء في التأكيد على آداب الطلب، والتحذير من الأدواء الملابسة لطلبة العلم، بدءاً من كتب ابن عبد البر والخطيب البغدادي رحمهما الله، وانتهاءً بكتب العلماء والدعاة المعاصرين.

وما ذاك إلا أن كل عالم يعايش في عصره من أمشاج السلوك، وأنواع العوائق ما لم يعايشه من قبله.

ولذا ألقى شيخنا الشيخ د. سلمان بن فهد العودة حفظه الله محاضرات عدة حول هذا الموضوع، يجمعها إرشاد طالب العلم إلى طريق الطلب التي خبرها عن ممارسة، وتحذيره من مزالقه التي كشفها بالعشرة والمخالطة، وتنبيهه إلى العوائق والآفات العارضة في هذه الرحلة الشاقة المشوقة.

وقد ألقى الشيخ هذه المحاضرات في أوقات وأماكن متفرقة قبل نحو خمس عشرة سنة، وقد قام المكتب العلمي بمؤسسة الإسلام اليوم بجمع هذه المحاضرات وتحريرها، وتجريدها من المكرر أو ما تجاوزه الوقت، ورشدت عن التذكير به شداة طلبة العلم، وجمعت في هذه الضميمة بهذا العنوان الجامع «مع العلم».

وإنا لنرجو أن يكون في هذه الرسالة المختصرة ما يهدي الطالب في طريقه، ويبصره في طريقته.

وأسأل الله عز وجل أن يهدينا ويسددنا، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

وكتب/

عبد الوهاب بن ناصر الطريري

المشرف على المكتب العلمي

بمؤسسة الإسلام اليوم

الباب / 1

من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين

لقد أصبح طلب العلم الشرعي من أكبر الهموم لدى شباب الصحوة، فأصبحوا يتطلعون إلى معرفة حكم الله ورسوله ﷺ فيما ينزل بهم من نوازل، ومنهم من يتطلع إلى أن يكون فقيهاً أو عالماً أو مفتياً ينفع الله به الأمة، ويجلو به الظلم.

ولكن.. صَاحَب ذلك الهم رغبة وعزوف بعضهم عن جوانب من الخير، كالدعوة إلى الله تعالى، والوعظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعبادة؛ بحجة الانقطاع إلى العلم والإقبال عليه.

وهذا الفهم نابع من قصورٍ في معرفة معنى العلم في القرآن وعند السلف الصالح، فلم يكن معنى العلم عند سلف هذه الأمة معرفة الأحكام الشرعية التفصيلية معرفة مجردة فحسب -وإن كان هذا جزءاً من العلم-، بل كان مفهوم العلم عندهم مفهوماً واسعاً، يشمل المعرفة العقلية لهذه العلوم بألوانها:

من معرفة للأحكام الشرعية والعقائد وغيرها، وما يتبعها لزاماً من تطبيق في الواقع، مع التزامها في أعمال القلوب: من الحب والخشية والإنابة والخوف ونحوها، وفي قول اللسان: من الذكر والتسبيح والدعاء والتعليم ونحوها، وفي أعمال الجوارح: كالعبادة والجهاد وما سواه.

وقد كان هذا المفهوم متكاملاً عند السلف الصالح، وهذا ما يجب أن يتنبه إليه الشاب: أن العلم في الإسلام ليس مجرد معرفة الأحكام الفقهية التفصيلية فحسب، وما ورد من الحث على العلم فهو يشمل ألوان العلوم مع التطبيق العملي.

أرأيت قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٢). هل المقصود بالفقه في قوله: ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ معرفة الحلال والحرام فقط؟

الجواب: كلا؛ لأن معرفة الحلال والحرام ليست هي التي يتم بها الإنذار، بل الإنذار يتم بالتخويف من الله تعالى، والتذكير بأيامه، والوعد بالجنة والوعيد بالنار، وما أشبه ذلك، فهذا هو الذي يكون فيه الإنذار أكثر من غيره، وفي هذه الأية قال الله تعالى: ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

وأنت لو أتيت كافراً، أو حتى مسلماً عاصياً فاجراً، وقلت له: إن حكم الإسلام كذا، وهذا حلال وهذا حرام. لو قلت له الحكم هكذا مجرداً من التخويف

والتذكير بالأسلوب المؤثر، فالغالب أنه لا يتأثر ولا يستجيب، إلا إذا أحطت الحكم بمؤثرات التخويف والترغيب والترهيب.

وهكذا قوله ﷺ في حديث معاوية رضي الله عنه كما في الصحيحين: «من يرد اللـهُ به خيراً يفقهه في الدين»[١].

فليس المعنى في هذا الحديث أن يفقهه في الدين بأن يجعله عالماً بالحلال والحرام فحسب، بل المعنى: أن من أراد الله به خيراً جعله عالماً في الدين، عالماً بالله تعالى، عالماً بالعقيدة الصحيحة، عالماً بالحلال والحرام أيضاً، ومتأثراً في قلبه بهذا العلم، ومطبقاً له في جوارحه، وإلا فإن من عَلِمَ العلم الشرعي من الفقه وغيره ثم لم يعمل به ولم يدعُ إليه، فهذا لا يقال فيه: إنه ممن أراد الله به خيراً؛ لأن علمه أصبح حجة عليه لا حجة له.

وهكذا أيضاً في الحديث المتفق عليه، لما سئل رسول الله ﷺ عن أكرم الناس قال: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[٢].

يعني: إذا علموا الفقه -الذي هو العلم بالله وشرعه- علماً يورث تأثر القلب، وانصياع الجوارح للعمل.

لذلك فإنه ينبغي أن نتنبه لهذا المفهوم، وألا يكون توجهنا ورغبتنا في العلم هو من أجل إقبال الناس؛ لأن الشاب -أحياناً- حين يرى إقبال الناس على المفتي وكثرة حاجتهم إليه فيخطر في باله أن يكون كذلك ليصرف وجوه

١. صحيح البخاري (٧١)، وصحيح مسلم (١٠٣٧).
٢. صحيح البخاري (٣٣٨٣)، وصحيح مسلم (٢٣٧٨).

الناس إليه، وهذا -والعياذ بالله- من المقاصد الخطرة في طلب العلم التي بيّن الرسول ﷺ أن من أرادها فجزاؤه النار، فقال ﷺ: «من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أوْ يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله النَّار»[١].

وفي الحديث الآخر: «مَنْ تعلَّم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»[٢]. يعني: رِيحَهَا. وفي حديث آخر: «وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»[٣]. وفي لفظ: «خمسمائة عام»[٤].

إن العمل بالعلم هو المقصود الأعظم من وجود الإنسان، بما في ذلك طلب الفقه، وأعني بالفقه: المعنى الاصطلاحي الذي يعبر عنه بأنه: «معرفة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية». أي: معرفة الحلال والحرام والمستحب والمكروه والمباح بأدلتها.

○ ○ ○ ○

---

١. أخرجه الترمذي (٢٦٥٤)، وابن ماجه (٢٥٣) نحوه.

٢. أخرجه أحمد (٨١٠٣)، وأبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وابن حبان (٧٨)، والحاكم (٢٨٨).

٣. ينظر: مسند أحمد (٦٤٥٧)، وصحيح البخاري (٦٩١٤)، وسنن ابن ماجه (٢٦٨٦)، وسنن النسائي (٤٧٥٠)، وفتح الباري (١٢/٢٦٠).

٤. ينظر: مسند أحمد (١٩٦٠١)، وسنن ابن ماجه (٢٦١١).

طرق تعلم العلم:

حول هذا اللون من العلم أشير إلى بعض القضايا، فأشير إلى القضية الأولى: وهي بعض طرق التعلم، ومعرفة الأحكام الشرعية:

الطريقة الأولى:

هي أن يبدأ الشاب أو طالب العلم بالتفقه على مذهب من المذاهب المتبوعة، كالمذهب الحنبلي أو الشافعي أو المالكي أو الحنفي أو غيرها من المذاهب التي هي مذاهب لأهل السنة والجماعة.

ففي مثل مجتمعنا يتجه الطالب في بداية التفقه إلى دراسة الأحكام على مذهب الإمام أحمد رحمه الله، ويختار في ذلك كتاباً من الكتب المختصرة أو المتوسطة، ككتاب «الروض المربع»، أو كتاب «منار السبيل»، أو كتاب «العمدة» للمقدسي، ويدرس الأحكام الشرعية التفصيلية في هذا الكتاب من أولها إلى آخرها دراسة تفصيلية، وليست قراءة مجردة، وبذلك يكوِّن لنفسه خلفية علمية شاملة في طريقة الاستنباط والأصول العامة، ويعرف القواعد التي بنى عليها الأصحاب اختياراتهم وآراءهم الفقهية.

ثم بعد ذلك يبدأ في تمحيص المسائل بصفة تدريجية، سواء بالتسلسل، أو كلما عرضت له مسألة واحتاجها درس هذه المسالة دراسة أوسع، دراسة مقارنة، بمعنى: أنه يدرس هذه المسألة بأدلتها؛ ليتوصل فيها إلى القول الراجح، ولو كان هذا القول قولاً ضعيفاً في المذهب، لكنه هو الراجح عند أكثر العلماء، أو عند المحققين، أو لم يكن قولاً في المذهب، لكنه قولٌ في

مذاهب أخرى.

وهذه الطريقة لها إيجابيات وسلبيات:

فمن فوائد هذه الطريقة:

أنها تكوّن لطالب العلم خلفية في معظم المسائل الفقهية، وغالبها مما يبحثه الفقهاء، وتجعله على اطلاع على أقوال أئمة المذهب في هذه المسائل.

ثم إنها تجعل الشاب أمام قول محدد لا يحتاج إلى أن يتيه بين أقوال متباعدة أو متضاربة، وقد يكون في حيرة واضطراب، فتجعله أمام قول واحد -غالباً- أو أكثر من قول، لكنها في الغالب تعتمد قولاً واحداً، أو تنتهي إلى ترجيح قول واحد.

وفي المقابل فهذه الطريقة لها بعض السلبيات، ومن أبرزها:

أن طالب العلم حين يفتح بصره على كتاب من هذه الكتب، ثم يفهم جميع ما فيه، معتقداً أن هذا هو الفقه الذي يتعلمه، فإنه يمتلئ قلبه وعقله به، ويعتقد أنه هو الحق ولا حق غيره، وربما أفضى به ذلك إلى التعصب لذلك القول الذي تفقه عليه، فلا يتسع صدره لتحمل الخلاف، ويصبح حكمه في المسائل قطعيّاً لا يراعي فيه خلافاً.

ومن سلبيات هذه الطريقة: أنها تُوجِد عند الطالب ركوناً إلى ما درس، بمعنى: أنه إذا قرأ رأي الأصحاب في هذه المسائل ركن إليه، ولم يعد لديه تطلع إلى مزيد من البحث والتحصيل، وتمحيص المسائل والوصول إلى نتائج أصح.

الطريقة الثانية:

أن يبدأ الطالب -بعد أن يكون قد أنهى دراسة المسائل على مذهب معين- بالتمحيص والبحث عن الترجيح، وذلك بالقراءة في كتب الفقه المقارن التي يذكر فيها مؤلفوها الأقوال في المسألة، وأدلة كل قول، ثم الخلوص إلى القول الراجح بدليله، ومناقشة أدلة الأقوال الأخرى.

ومن أمثلة الكتب التي تعتمد على ذكر القول الراجح بدليله والقول الراجح لدى المؤلف: كتاب: «الدرر البهية» وشرحه «الدراري المضية» للشوكاني، و«الروضة الندوية» لصديق حسن خان، وإن كانت لا تستوعب المسائل الفقهية جميعها، ولكن يبدأ الطالب بقراءة هذه الكتب، أو يبدأ بقراءة كتب حديثية -وليست فقهية- من الكتب التي عنيت بشرح أحاديث الأحكام، فإن العلماء منذ القديم قد عنوا بالتصنيف في أحاديث الأحكام، فصنّف فيه الإمام المجد ابن تيمية -جد شيخ الإسلام- كتاباً سمّاه: «المنتقى من أحاديث المصطفى»، وصنّف الإمام عبد الغني المقدسي كتاب «عمدة الأحكام»، وصنّف الحافظ ابن حجر كتاب «بلوغ المرام»، وهناك كتب أخرى غير هذه الكتب، لكنها قد تكون أقل شهرة منها.

وهذه الكتب التي جمعت أحاديث الأحكام عني العلماء -أيضاً- بشرحها، وأفضل كتاب مطبوع في شرح أحاديث الأحكام كتاب: «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار» للإمام الشوكاني، شرح فيه «المنتقى» لابن تيمية الجد رحمه الله، وهناك شروح لكتب أخرى، مثل: «سُبُل السلام»، و«البدر التمام في

شرح بلوغ المرام»، وشروح «عمدة الأحكام» القديمة والحديثة، ومن أيسرها وأوضحها وأنفعها: «تيسير العلام» للشيخ ابن بسام، وغيره.

فالطالب حينما يبدأ في القراءة في هذه الشروح قراءة متأنية، يتيح لنفسه معرفة الأقوال المتنوعة في المسألة وأدلتها وما رجّحه المصنِّف، وهذه الطريقة لا تعتمد مذهباً فقهيّاً معيناً، ولكنها تعتمد المقارنة والبحث عن القول الراجح.

وهذه الطريقة -أيضاً- هي كالأولى لها إيجابيات ولها سلبيات:

فمن إيجابيات هذه الطريقة:

أولاً: أنها تدرِّب الطالب على النظر المتوازن، وتمنحه فرصة النظر في الأقوال كلها، والترجيح بينها بتوازن، وتجرد وبحث صادق عن القول الراجح.

ثانياً: أنها تربي في الشباب قدراً من الاستقلالية وعدم التعصُّب لشيخ ما، أو لكتاب معين، أو لمذهب معين.

ثالثاً: أنها تدرِّب الطالب على المرونة في التفكير وسعة الأفق، فالإنسان الذي لا يعرف إلا قولاً واحداً ينكر كلَّ ما عداه، وأحياناً ليس لديه استعداد أن يناقش؛ أما الطالب الذي قد عرف الأقوال، ونظر في أدلتها، فإن صدره يتسع للخلاف، وعدم القطع بصحة ما ذهب إليه ورجحه.

رابعاً: كسب الوقت؛ فالعمر قصير، والشاب إذا قرأ كتاباً مرة قراءة متأنية قد لا يعود إليه، خاصةً في هذا العصر الذي ضعفت فيه الهمم، وانشغل الإنسان فيه بشواغل كثيرة، وقد يكون العلم الشرعي هو أحدها في بعض الأحيان.

ولهذه الطريقة أيضاً سلبيات، ومن سلبياتها:

أولاً: أن الشاب إذا كان مبتدئاً فإنه -غالباً- يكون غير مؤهل لقراءة الأقوال المتعارضة والأدلة واختيار القول الراجح؛ لأن هذا يتطلب وجود معرفة وإحاطة بالأصول بصفة عامة، وإلماماً ببعض العلوم، وهذا قد لا يتيسر للطالب في بداية التفقه، فقد يكون اختيار الطالب حينئذ لقول من الأقوال ليس لقوة هذا القول، ولكن لسبب آخر، كغرابته -مثلاً- فبعض الناس مولع بالغريب الملفت، والقول الشاذ يجد له أنصاراً في بعض الأحيان.

وقد يكون اختيار الشاب لقول من الأقوال إنما هو لأن أحد العلماء أيّد هذا القول وتحمس له وعرضه بلغة قوية، كابن حزم -مثلاً- فحين يقرأ بعض الشباب كتابه «المحلى» يصبحون أسرى له من حيث شعروا أو لم يشعروا، وقد يكون اختياره لقول من الأقوال اغتراراً ببعض الظواهر مع الغفلة عن أمور أخرى قد تكون أقوى في الدلالة منها.

ثانياً: أن الشاب في مثل هذه المرحلة إذا بدأ هذه البداية قد يصبح لديه تجوزٌ وجرأة في الكلام عن الأحكام والحلال والحرام والخلاف والقيل والقال، وهذا يُحدث نوعاً من الفوضى بينه وبين المجتمع، وخلخلة لدى العامة الذين تعلَّموا أن يأخذوا الأحكام من العلماء المعروفين، ولا تتسع عقولهم لاستيعاب أسباب الخلاف والنظر في الأدلة والمقارنة بينها، إنما تتسع عقولهم أن يقول الشيخ لأحدهم بكل حزم: هذا حلال، وهذا حرام، افعل، أو: لا تفعل، فيمتثل وهو طيب الخاطر.

وقد يقول قائل: أنت الآن عرضتَ علينا طريقتين، وكل طريقة قلت لنا: لها إيجابياتها وسلبياتها، فما الجدوى وما الحل؟

أما الجدوى: فإنني أقول: إن كل طريقة من الطريقتين لو سلكها إنسان عارفُ بإيجابيتها وسلبياتها ولديه تأهيل يمكن أن تكون طريقةً صحيحة، وذلك إذا كان طالب العلم لديه قدر من التمكن، وبدأ بدراسة الأقوال على مذهب معين، ثم انتقل بعد ذلك إلى التمحيص والمقارنة بين الأقوال.

وأما السلبيات المذكورة فإنها تعود -غالباً- إلى الشخص وإمكاناته، فكل شخص له ما يناسبه.

أما الحل الذي قد يكون مناسباً ووسطاً فهو: أن يعمل طالب العلم على المزاوجة بين هاتين الطريقتين، بمعنى: أن يحرص الطالب في دراسة المسائل على أن يدرسها من الكتب المقارنة، مثل «نيل الأوطار» أو غيره، على أن يُعنى بكتب الفقه، بحيث يقرأ في كل مسألة أقوال الفقهاء فيها، فيقرأ كتاب «المغني»، أو «حاشية ابن قاسم»، أو «الكافي»، أو أي كتاب آخر، ويعرف الأقوال، ثم يطلع أيضاً على الكتب الأخرى؛ لأن هذا يُوجد لديه قدراً من الاعتدال.

وإنك لتلحظ في واقع الشباب المتفقهين أنهم على صنفين:

الصنف الأول: من يتفقه على مذهب معين، ويزدري من يتفقهون على الأقوال فقهاً مقارناً، ويرى أن هؤلاء سوف يضيعون أعمارهم بلا طائل.

الصنف الثاني: من بالغ في نبذ كتب المذاهب، ويعدُّون كلَّ من تفقه على مذهب معين لم يحصل على علم شرعي، وأنه مجرد مقلد، وأن المنهج

الصحيح هو التفقه بدراسة الأقوال في كل مسألة بأدلتها، ثم الخلوص إلى الترجيح بمسوغاته.

فهذان طرفان، والتوسط أن يقال: مع كلٍّ من الطرفين بعض الحق.

فالتفقه على كتاب من كتب المذاهب الفقهية فيه خير كثير، وهي جهود أئمة وعلماء مجتهدين أجمعت الأمة على فضلهم واتباعهم وفقههم، وشأن العامي -أيّاً كان- أن يقلّد هؤلاء العلماء أحياءً كانوا أو أمواتاً.

كذلك الكتب المقارنة التي تذكر الأقوال بأدلتها فيها خير كثير، من جهة أن الحق ليس محصوراً في مذهب معين، بل كل مذهب من هذه المذاهب المعتبرة فيه أقوال راجحة وأخرى مرجوحة، فالمزاوجة بين هاتين الطريقتين تجعل طالب العلم أقرب إلى الاعتدال والتوازن والاطلاع على هذه الكتب.

○ ○ ○ ○

بعض الوسائل المعينة على التفقه في الدين:

الوسائل التي يستعين بها الطالب على التفقه كثيرة، أذكر منها أربعاً:

الوسيلة الأولى: الحفظ:

وقد كان السلف يُعنون به عناية كبيرة منذ الصغر، فكانوا يبدؤون بحفظ القرآن الكريم، ثم حفظ السنة أو بعضها، ثم حفظ بعض المتون.

ولا زال علماؤنا -حتى اليوم- يعدُّون الحفظ من ضرورات طلب العلم، وأنه لابد أن يكون لدى طالب العلم بعض المحفوظات من المتون المهمة، ولا يغني عن الحفظ وجود وسائل الحفظ المعاصرة، فعلى طالب العلم أن يحفظ بعض المتون ولو صغرت. وكل علم من العلوم فيه متون مختصرة منثورة أو منظومة، وعلى الطالب أن يحفظ شيئاً منها كمتن في المصطلح، ومتن في الفرائض، ومتن في اللغة العربية، وهكذا؛ فإن من الخير توجيه طلاب العلم في صغر سنهم إلى حفظ أمهات المتون، في شتى الفنون.

الوسيلة الثانية: القراءة:

فالطالب الذي لا يقرأ لا يحصِّل علماً، ولابد أن يكون الطالب (طُلَعة) أي: لديه رغبة شخصية في القراءة، بحيث يتحيَّن كل فرصة ممكنة له في القراءة، وليست قراءة الخطّافين، الذي يقرأ من كل كتاب عشراً أو عشرين صفحة،

ثم يغادره إلى غيره، بل لابد أن تكون قراءة متأنية مركزة، وقد قيل: لأن تقرأ كتاباً واحداً ثلاث مرات خيرٌ من أن تقرأ ثلاثة كتب مرة واحدة.

فمن المهم أن تكون لطالب العلم قراءة مستمرة من كتب مختارة في ألوان العلوم، ومن المفيد أن يسجل طالب العلم الشوارد التي يقف عليها أثناء قراءته، وأنت أثناء قراءتك لكتاب ما قد تجد من الفوائد ما يعز العثور عليها ولو مع طول البحث، فيحسن بطالب العلم أن يعتمد تدوين الفوائد والشوارد، كأن يجعل الصفحات البيضاء الأولى من الكتاب مكاناً يكتب فيه الفوائد التي يقع عليها أثناء القراءة، ويرجع إليها بين حين وآخر، وقد جرّبتُ هذه الطريقة في عدد من الكتب فوجدتها في غاية النفع لطالب العلم.

الوسيلة الثالثة: التتلمذ المباشر:

فلا يعتمد الطالب على نفسه فقط، بل يحرص على أن يتتلمذ على الشيوخ، سواء في حلقات العلم، أو من المحاضرات، أو الأشرطة، أو غيرها.

ومن التتلمذ المهم: أن يراجع الطالب الشيخ كلما أشكل عليه أمر، ويعرض عليه كل نتيجة توصل إليها. فلا يستبدّ بالآراء ولا يستقل بنفسه، فهو ضعيف مهما كان، وليس من السائغ إهمال خبرة العلماء الذين قضوا أعمارهم في التحصيل والتدريس والترجيح، وأدركوا من أسلوب التعامل مع النصوص ما لم يدركه الطالب المبتدئ.

الوسيلة الرابعة: البحث:

فالبحث ضروري لكل طالب، فلا يكفي أن يقرأ، إذ لابدَّ أن يتدرب الطالب على البحث، بعد معرفة شروطه الأساسية، ويحرص على أن يختار مسائل، ويبحثها - من خلال مراجع معتمدة - بحثاً علميّاً دقيقاً؛ ليتعلم أسلوب الكتابة وأسلوب الترجيح، وكيفية الجمع بين الأقوال وصياغتها.

ثم يعرض هذا البحث الذي كتبه على شيخ أو أستاذٍ، ليصححه له ويراجعه، ويبينِّ له الأخطاء. وليست مهمة هذا الشيخ أو الأستاذ أن يقول: هذا البحث ممتاز، أو: قد بلغ الغاية، أو: إنك قد وصلت فيه إلى ما لم تستطعه الأوائل، فهذا نوع من إثارة الغرور في نفس الطالب، لا يفعله الأستاذ الناصح، بل مهمة الأستاذ أن يُثني عليه باعتدال، ويبين له في المقابل مثالب هذا البحث ومآخذه، ويرشده إلى الأفضل والأسلم.

○ ○ ○ ○

سلبيات ومثالب تعرض للطالب في تفقهه:

هنا سلبيات تتعارض مع التفقه السليم، يحسن بالطالب الناصح أن يتجنبها، ومن ذلك:

أولاً: أن كثيراً من الطلاب في هذا العصر يعنون عناية بالغة جداً ببعض الجزئيات، ويُشغلون أنفسهم وغيرهم بها، وهذه الجزئيات -وإن كنا لا نرضى أن نسميها قشوراً- إلا أننا نأخذ الأهم فالمهم، والأولى ثم الأولى، ونعطي كل مسألة حقها الواجب على قدر درجتها من الأهمية؛ حتى لا تطغى جزئية على كلية، ولا يهمل أصل لأجل فرع.

فكون طالب العلم في بداية طلبه للعلم يشغل نفسه بمسألة رفع الإصبع السبابة وتحريكها في التشهد في الصلاة -مثلاً- حتى تأخذ منه جل وقته واهتمامه، وتكتب عشرات الأبحاث في هذه المسألة ما بين كتب مطبوعة وأبحاث منشورة في عدد من المجلات الإسلامية، ثم لا تجد عشر هذا الاهتمام والدراسة لقضية كبرى من كليات الشريعة، فهذا من الخلل في ترتيب الأولويات، وزلل في منهج الطلب.

فكثيراً ما يشغل الشباب أنفسهم ببحث مسألة، كجلسة الاستراحة؛ نظراً لكثرة الاختلاف فيها وشدّته، وكذلك تقديم اليدين أو الركبتين في حالة السجود، ولا اعتراض على بحث المسألة، وبسط الأدلة، وتحقيق الراجح فيها، فهذا كلُّه لا غبار عليه، لكن الخطأ أن نستغرق فيها، وتصبح هي جل اهتماماتنا، ونشغل بها وقتنا وأعمارنا، وكتبنا ومجلاتنا ومجالسنا، فهذا ليس

من الحكمة ولا من العدل، بل العدل يقتضي أن نضع الأمور في مواضعها، وهذه الأمور فيها سعة، ولا ينبغي أن نشدد فيها على الناس.

ومن المهم أن يصبح لدى المتفقهين قدر من المرونة في التعامل مع الناس، وتقدير آرائهم ومواقفهم المخالفة لهم.

ثانياً: ولع بعض الشباب بالغرائب وذلك حينما يبدأ بالصّعْب على غيره رغبةً في التميز عن الآخرين.

وكان القاضي أبو يوسف رحمه الله وغيره يقول: «من طلب غرائب الحديث كذب، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب الدين بالكلام تزندق»[١].

وهذه الصورة قد توجد بأسلوب آخر عند بعض المبتدئين في التفقه، فتكون لدى أحدهم رغبة في اختيار أقوال غريبة أو شاذة أو مهجورة، ربما كان من سبقه إليها معذوراً في القول بها؛ إما لأن النص لم يرده، أو وجدت عنده شبهة، أو أخذ بحديث ضعيف يظنه صحيحاً، ونحو ذلك من الأعذار، لكن الطالب المبتدئ ليس معذوراً أن يأخذ زلة هذا العالم ويتبنى هذا القول الذي انفرد به.

ثالثاً: أن بعض الشباب حين يطَّلع على الأقوال المختلفة والأدلة، ينظر إلى ظواهر بعض النصوص نظرة مباشرة وظاهرية، فيخيل إليه أن الذين خالفوا

---

١. ينظر: تأويل مختلف الحديث (ص:٦٠)، واعتقاد أهل السنة للالكائي (٣٠٥)، والصواعق المرسلة (١٢٦٤/٤)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص:١٢٨).

هذا الظاهر قد أخطؤوا وصرفوا دلالة هذا الحديث، وقد يتجرأ على العلماء، فتجده يستعمل أحياناً عبارات لا تتناسب مع مكانة هؤلاء العلماء.

فينبغي للطالب أن يحرص على معرفة قدر العلماء وتعظيمهم والانتفاع بعلمهم، وأن يُمكِّن ثقة الناس بهم، لا أن ينزعها عنهم، وهو في الواقع لن ينزعها منهم، بل سوف ينزع ثقة الناس به هو حين يتعرض لهؤلاء العلماء؛ لأننا نُشْهِد الله أن هؤلاء العلماء الذين اتفقت الأمة على اتباعهم في الجملة، كالأئمة الأربعة والثوري والطبري والأوزاعي وأشباههم ما كانوا يريدون إلا الحق، رحمهم الله رحمة واسعة، وجزاهم عن أمة محمد ﷺ خير ما جزى عباده الصالحين.

• • • •



الباب / 2

من وسائل التعليم

إن إقبال الشباب على طلب العلم يحتّم على الموجهين والعلماء طَرْقَ هذه الموضوعات والحديث عنها، وتبصير الشباب بالوسائل والسبل الصحيحة المؤدية إلى تحصيل العلم والمحافظة عليه.

وللشاب المسلم -وهو يسعى في طلب العلم اليوم- أسوة وقدوة بأصحاب محمد ﷺ، والذين كان منهم شباب في مقتبل أعمارهم، قضوا حياتهم في طلب العلم وتحصيله، والعمل به، ثم في أدائه ونقله إلى الآخرين، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما تُوفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: يا فلان! هلم فلنسأل أصحاب النبي ﷺ، فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجباً لك يا ابن عباس! أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى؟! فترك ذلك، وأقبلت على المسألة، فإنْ كان ليبلُغُني الحديث عن الرجل، فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، فتَسفي الريح

على وجهي التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله! ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك؟ فأقول: لا. أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث. قال: فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس عليَّ، فقال: كان هذا الفتى أعقل منّي»[١].

فللشاب المسلم أسوة بهذا الحبر الإمام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، الذي لم تمنعه مكانته من رسول الله ﷺ، ولم يمنعه علو نسبه وقدره وتقديم الخلفاء له -كما كان عمر رضي الله عنه يقدمه ويجلسه في مجالس المهاجرين والأنصار[٢]- لم يمنعه كل هذا من طلب العلم والتواضع في سبيل ذلك.

وقبل أن أدخل في الوسائل التي يستطيع المسلم -وخاصة الشاب- أن يحصّل بها العلم، أشير إلى قضية مهمة، وهي: ضرورة التوازن في شخصية المسلم، فالله سبحانه وتعالى لم يخلقنا من أجل أن نحصّل المعلومات ونخزنها في عقولنا فحسب، والإنسان لا يرتفع قدره في الدنيا والآخرة بمجرد أن يكون داعية، أو راوية، أو حافظاً، وقد قيل لأحدِ العلماء: إن فلاناً يحفظ «صحيح البخاري». فقال: زاد في البلد نسخة!

إذاً: من الخطأ أن يكون همنا هو مجرد جمع المعلومات وخزنها وتحصيلها، وإذا كان هَمُّ الشاب هو مجرد جمع المعلومات فإنه يُخشى أن يكون هذا لغير الله - نسأل الله السلامة -؛ لأن الشاب يحب أن يفاخر في المجالس بمحفوظاته،

١. أخرجه ابن سعد (٢/٣٦٧)، والدارمي في سننه (٥٧٠)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على فضائل الصحابة (١٩٢٥)، والحاكم (٣٦٣)، والبيهقي في المدخل (ص:٣٨٦)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢١٥).

٢. ينظر: صحيح البخاري (٣٦٢٧).

أو أن يُدِل بها على غيره، أو أن يباهي بها العلماء ويماري بها السفهاء، أو أن يصرف بها وجوه الناس إليه، فيكون همه جمع هذه المعلومات.

وأنت إذا قرأت في القرآن والسنة وكتب أهل العلم، وجدت أن مفهوم العلم عند السلف يختلف كثيراً عن مفهوم العلم عندنا اليوم.

فمفهوم العلم في القرآن والسنة وفي كتب السلف مفهوم واسع، يشمل تعلُّم علوم الكتاب والسنة والتفقه فيها، والعمل بها، والدعوة إليها، ولو أردت أن أذكر بعض الأمثلة من الآيات والأحاديث وأقاويل الصحابة والتابعين في هذا الباب لطال المقام، ويكفي أن ترجع يا طالب العلم إلى كتاب من كتب أهل العلم، لتجد هذا واضحاً جليّاً.

اقرأ -مثلاً- المقدمة التي وضعها الإمام الدارمي لكتابه الموسوم بـ«السنن». واقرأ كتاب: «جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله» للإمام ابن عبد البر، وغيرها من الكتب الكثيرة التي تتحدث عن العلم والتعلم، والفقه والتفقه. فتجد أن العلم في القرآن والسنة وعند السلف لا يعني مجرد تحصيل المعلومات فحسب، بل يشمل معنىً أوسع من ذلك.

ومع الأسف فإن كثيراً من الشباب اليوم حين يطلقون كلمة «العلم» لا يقصدون بها إلا مجرد حشد المعلومات في أذهانهم! فتجد شابّاً يعيش في وسط مجموعة من قرنائه وأصحابه الفضلاء، يتلقى معهم التربية وفن المعاملة، وأسلوب التخلق بالخلق الكريم فيقول: لم أحصِّل شيئاً من العلم. سبحان الله! وما هو العلم؟ وماذا يراد بالعلم؟ وأنت حين تتعلَّم الحلال والحرام، والحق

والباطل، ماذا تقصد من وراء ذلك؟

إن كان يقصد من ورائه العمل والتعليم فأولى من يعمل ويُعلِّم هو الإنسان نفسه، وأولى منْ تعلِّمه أن تعلِّم نفسك، وأنت إذا أقبلت على العبادة، وعلى الخلق الفاضل، فهذه ثمرة عظيمة من ثمرات العلم، فيجب ألا تشتطَّ بنا النظرات وردود الفعل، فينساق الإنسان بسبب ذلك وراء بعض الظواهر دون تأمل أو تدبر.

إذاً العلم معنىً واسع شاملٌ للتربية، فمن العلم: تعلم الخُلُق الفاضل. ومن العلم: تعلم العبادة، ومن العلم: الخشوع، وتعلم الحلال والحرام، وحفظ القرآن، ومن العلم: العمل بهذه الأشياء والدعوة إليها.

ولو تأملت أسلوب أصحاب محمد ﷺ في تلقي العلم وتعليمه والعمل به، لوجدت أمراً عجباً، فقد كان يأتي الرجل من أصحاب محمد ﷺ إلى المدينة المنورة، فيجلس إلى رسول الله ﷺ أياماً، فيسمع منه الآيات والأحاديث المعدودة، ويحفظها ويفهم معناها ويعمل بها، ثم يرجع إلى قومه منذراً، معلِّماً داعياً، ولا يعني هذا أنه توقَّف عند هذا الحد، بل يعود مرة أخرى وثالثة ورابعة، ويتزود من العلم.

ومنهم من يوقف نفسه على طلب العلم وتعلمه وتعليمه، لكن لم يكن في ذهن واحد من هؤلاء الصحابة أن العلم شيء والتعليم والعمل شيء آخر، كلا! فكل هذه الأشياء كانت عندهم شيئاً واحداً؛ ولذلك نعرف جميعاً كلمة أبي عبدالرحمن السلمي رحمه الله حين قال: «حدَّثنا الذين كانوا يُقْرِئُننا أنهم

كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْرَ آيات لم يُخَلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعَلَّمنا القرآنَ و العملَ جميعاً»[١].

والعلم لم يشرف إلا من أجل العمل، وكذلك علوم العقائد شرفت بشرف المعلوم؛ ولأجل أن يعتقدها الإنسان، أما لو تعلم إنسان هذه العلوم فلم يعتقدها، ولم يؤمن بها فستكون وبالاً عليه.

○ ○ ○ ○

---

١. أخرجه ابن سعد (١٧٢/٦)، وابن أبي شيبة (٢٩٩٢٩)، وأحمد (٢٢٣٨٤)، والطبري في تفسيره (٨٠/١).

أهم وسائل التعليم:

وسائل التعلم كثيرة، ويروى عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه كان يقول:

أَخِـيْ لَـنْ تَنَالَ العِلْمَ إلاَّ بِسِتَّةٍ
سَأُنْبِيكَ عَـنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَـاءٌ وَحِـرْصٌ وَاجْـتِـهَـادٌ وَبُلْغَةٌ
وَصُحْبَةُ أُسْـتَـاذٍ وَطُـولُ زَمَـانِ

وهذه الأشياء الستة ذكرها الإمام أبو هلال العسكري في كتابه «الحث على طلب العلم» بصيغة أخرى، فنسب إلى بعض الأوائل أنهم قالوا: «لا يتم العلم إلا بسته أشياء، منها: ذهن ثاقب، وزمان طويل، وكفاية، وعمل كثير، ومعلم حاذق، وشهوة...»[1].

وهذه الأمور الستة المنقولة عن الإمام الشافعي رحمه الله، والتي نسبها أبو هلال العسكري لبعض الأوائل يمكن أن نقسمها إلى قسمين:

القسم الأول: وسائل التعليم الفطرية:

وهي أشياء فطرية مركوزة في فطر بعض الناس تُخلق معهم، وهي محض منة وهبة إلهية، وإن كان الإنسان يستطيع أن ينميها، لكن لابد أن يوجد أصلها في فطرة الإنسان وجبلته.

من هذه الأمور الستة: الذكاء، وقوة الذاكرة، والحرص. وهذه الأشياء الثلاثة هي في الغالب موهوبة.

---

١. ينظر: الحث على طلب العلم (ص:٤٧-٤٨).

الوسيلة الأولى: الذكاء:

والمقصود بالذكاء أو ما عبر عنه بعض الأوائل بالذهن الثاقب: هو ما يمكن أن نعبر عنه بسرعة الفهم، وقوة الاستنباط، وسعة العقل، فإن الإنسان الذي يريد أن يحصل على العلم لابد أن يكون لديه قوة في عقليته، وقدرة على الاستنباط.

الوسيلة الثانية: الذاكرة:

ويقصد بها قوة الحفظ، وقد عبر عنها أبو هلال العسكري بكلمة «الطبيعة»، يعني: الشيء الذي يطبع عليه الإنسان.

فقوة الذاكرة لابد منها لطالب العلم.

والفرق واضح جدّاً بين قوة الاستنباط وبين قوة الذاكرة، فقد يستطيع طالب العلم أن يحفظ نصوصاً كثيرة، وأن يستظهرها، ولكن ما لم يكن لديه قوة في الاستنباط والفهم واستخراج المعاني الدقيقة فإن هذه الأشياء التي حفظها لا تكون كافيةً في تحصيله.

والعكس كذلك؛ فقد يكون لدى الإنسان قوة في استنباطه، لكن لا يكون لديه النصوص التي يستطيع أن يستنبط ويستخرج منها المعاني والأحكام، ويجمع بينها.

بعض وسائل تنمية الذاكرة:

فمع أن الذاكرة أو قوة الحفظ هي محض امتنان وتفضل من الله عز وجل، إلا أن الإنسان يستطيع أن ينمي ذاكرته، وقد ذكر العلماء قديماً وحديثاً وسائل

كثيرة لتنمية الذاكرة وتقويتها، فمن هذه الوسائل:

أولاً: **توجيه الهم إلى شيء واحد**: بمعنى أن الإنسان إذا أراد أن يحفظ شيئاً فعليه أن يحرص على توجيه فكره وهمه إلى ما يريد حفظه، فلو أردت أن تحفظ وأنت مشغول البال بأمرٍ ما، أو في حالة غضب فلن تستطيع أن تحفظ، لكن إذا كان مزاج الإنسان معتدلاً، ونفسه مستقرة، ثم فرَّغ نفسه من الشواغل ووجهها إلى هذا الشيء الذي يريد حفظه أفلح في حفظه.

ثانياً: **تعويد الإنسان لنفسه على الحفظ**: فإن الذاكرة كأي موهبة أخرى إذا حرَّكها الإنسان واستثمرها مرة بعد مرة قويت ونمت، وإذا أهملها ضمرت وضعفت.

وهكذا كل الأعضاء التي عند الإنسان إذا نماها نمت، وإذا أهملها ضعفت.

ولذلك كان الإمام الزهري رحمه الله يقول: «إن الرجل ليطلب العلم وقلبه شِعْب من الشعاب، ثم لا يلبث أن يصير وادياً، ولا يوضع فيه شيء إلا التهمه»[1]. أي: أن القلب في بداية الطلب شعب صغير من الشعاب، ثم مع استمرار الطلب وتكرار الحفظ وتعويد الذاكرة ينمو قلب الإنسان وعقله، وتتسع ذاكرته، ويصبح لديه قدرة على الحفظ.

ثالثاً: **تكرار الشيء الذي تريد حفظه**: وقد سمعت كثيراً أن الشباب يتبرمون من ضعف الذاكرة، ويظن أحدهم أن الذاكرة القوية التي يتمتع بها غيره هي ذاكرة جبارة على الدوام، فما أن يسمع النص مرة واحدة إلا ويحفظه بلا

---

١. ينظر: الحث على طلب العلم (ص:٧١).

حاجة إلى التكرار، وهذا قد يوجد، ولكن الغالب أن الموصوفين بالحفظ نَمَّوا هذا التميز بكثرة المحفوظات، وبتكرار ما يريدون حفظه.

هل تظن أيها الشاب! أن قراءتك -مثلاً- لكتاب ما مرة واحدة تكفي لتفهم ما في هذا الكتاب؟

من الخطأ أن تظن ذلك، وكبار العلماء والأدباء وغيرهم يؤكدون أن الشيء لا يحفظ أو يضبط بمرة أو مرتين أو ثلاث، وكان العقاد - الأديب المشهور - يقول: لأن أقرأ كتاباً واحداً ثلاث مرات أحب إلي من أن أقرأ ثلاثة كتب مرة واحدة؛ لأن تكرار قراءة الكتاب تعين على ضبطه أو حفظه.

فلابد أن ندرك أن من أهم وسائل الحفظ: تكرار ما يراد حفظه، والتكرار يختلف، فبعضنا قد يحفظ بمرة أو مرتين، وبعضنا لا يحفظ إلا من عشر مرات أو أكثر، وكل إنسان عليه أن يكرر الشيء الذي يريد أن يحفظه حتى يحفظه، وقدرات الناس في ذلك متفاوتة.

رابعاً: **رفع الصوت بما تريد أن تحفظه أو تقرأه:** فإن رفع الصوت يجعل أكثر من حاسة تشارك في عملية التعليم، فالبصر يشارك في القراءة، والأذن تشارك في السماع، وقد يكون انتباه الإنسان لما يرى ويسمع أكثر من انتباهه لما يقرؤه قراءة مجردة بدون رفع صوت.

خامساً: **السهر:** لقد كان يشيع عند القدماء أقاويل لا تثبت للنقد الصحيح، مثل أكل أصناف معينة من الطعام، وترك أشياء معينة يساعد على قوة الذاكرة. وقد سئل أبو حنيفة رحمه الله: ما الشيء الذي يقوي الذاكرة؟

فأجاب بجواب طريف، فقال: «الذي يقوي الذاكرة هو البزر».

والبزر: هو نوع معين من النبات يستخرج منه الدهن، ويقصد أبو حنيفة رحمه الله بذلك: الدهن الذي كانت توقد عليه السرج في الماضي، يعني: الذي يقوي الذاكرة هو السهر في طلب العلم.

ولعله كان يقصد بهذا الجواب أمرين:

أولاً: أن التكرار والتفرغ للقراءة يقوي الذاكرة.

ثانياً: ما أشرنا إليه أن استمرار الإنسان في الطلب يوسع من ذاكرته وعقليته، كما أشار إلى ذلك الزهري رحمه الله في كلمته السابقة.

الوسيلة الثالثة: شهوة العلم:

أو ما عبر عنه الشافعي بالحرص على طلب العلم، والحرص في غاية الأهمية، ونحن نرى في واقع الحياة أشخاصاً لدى الواحد منهم عقلية ممتازة وذاكرة جيدة، حتى إنه قد يقرأ -مثلاً- رقم السيارة مرة واحدة فيحفظه بدون تكلُّف، ويحفظ مئاتٍ من أرقام الهواتف، ويتمتع بقدرات قوية جدّاً، لكن مع ذلك تجد هذا الشخص يعيش بهمة ضعيفة، ويمضي عمره وليس له قيمة ولا شأن؛ لأنه قد افتقد الحرص أو ما يسمى بشهوة العلم التي بسببها تكون لديه رغبة في الطلب والتحصيل، ولا شك أن الإنسان يستطيع أن ينمي هذه الرغبة بالقراءة في النصوص الواردة في فضل العلم والعلماء، لكن ما لم توجد الرغبة أصلاً فإن هذا الإنسان لن يواصل في طلب العلم،

ولن يبلغ فيه مبلغاً عظيماً.

إذاً: وجود رغبة فطرية في طلب العلم شرط رئيس لسرعة التحصيل.

وأضرب لذلك مثلاً: لو أن مسألة ما أشكلت عليك وأنت تؤدي عبادة من العبادات ولم تعرف حكم الله وحكم الرسول ﷺ فيها، فهنا وجد ما يسميه علماء التربية وعلماء النفس المعاصرون بـ«الدافع» وجد دافع نفسي عندك للتحصيل لمعرفة الحكم. فهذه الشهوة لتحصيل العلم تجعلك حين تعرف الحكم تحفظه ولا تنساه. لكن لو سمعت كلاماً طويلاً في موضوع لا يهمك، فسرعان ما تنسى هذه المعلومات وتضيع منك.

إذاً: فوجود شهوة وحرص حقيقي على العلم يحقق لك سرعة التحصيل وضبط المعلومات وحفظها، ولذلك فإن المعلم الناجح هو الذي يثير لدى الطالب الدافع الفطري للتحصيل، وقد كان النبي ﷺ يستعمل مثل هذا الأسلوب مع الصحابة رضوان الله عليهم.

فيتعمَّد أحياناً إثارة تساؤلات في نفوس الصحابة رضي الله عنهم، وإثارة دوافع لديهم حول موضوعٍ ما حتى يحتفظوا بالجواب ولا ينسوه، من ذلك: أن النبي ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أتدرون ما المفلس؟». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح

في النار»[١].

مثال آخر: قوله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟». قالوا: بلى يا رسول الله... فذكرها لهم[٢].

مثال ثالث: ما رواه الشيخان في صحيحيهما في قصة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لما كان النبي ﷺ بين أصحابه، فسألهم قائلاً: «إن مِنْ الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مَثَلُ المسلم، فحدثوني ما هي؟». فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبدالله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟! فقال: «هي النخلة». قال: فذكرت ذلك لعمر، فقال: لأن تكون قلتَ: هي النخلة. أحب إليَّ من كذا وكذا[٣].

فإثارة الدافع لدى المتعلم من أهم الوسائل في التحصيل.

إذاً: من فوائد وجود شهوة العلم والرغبة في التحصيل:

أولاً: السرعة في التحصيل.

ثانياً: القدرة على تجاوز العقبات؛ لأن العلم يعترض تحصيله عقبات كثيرة: عقبات من داخل النفس، وعقبات من البيت، ومن المجتمع، فيحتاج معها إلى دافع قوي يحقق له تجاوز هذه العقبات من شهوة العلم والرغبة في التحصيل.

١. أخرجه أحمد (٧٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨).
٢. أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).
٣. صحيح البخاري (٦١)، وصحيح مسلم (٢٨١١).

القسم الثاني: وسائل التعليم الكسبية:

وهي الوسائل التي من عمل الإنسان وكسبه، ومنها:

صحبة الأستاذ، والبلغة، وطول الزمان.

الوسيلة الأولى: صحبة الأستاذ:

فالأستاذ يؤثر تأثيراً بالغاً في طلابه، ولذلك فإن اختيار الطالب للأستاذ الذي يتلقى عنه العلم أمر في غاية الأهمية، وإذا عرفنا أن العلم ليس مجرد حشد للمعلومات في الذهن، أدركنا أن الطالب في الغالب هو صورة عن أستاذه، ولو تأملت وجدت ذلك ظاهراً جليّاً في العلماء.

فمثلاً: إذا نظرت إلى تلاميذ الإمام أحمد رحمه الله تجدهم صوراً مصغرة عن هذا الإمام في العلم والزهد والورع والاتباع.

وكذلك تلاميذ الإمام ابن تيمية رحمه الله كابن القيم، وابن عبد الهادي، وابن كثير، تجد أيضاً التأثر الكبير عندهم بالشيخ.

والمتأمل في الواقع يجد أن الذين تتلمذوا على الأشياخ الأجلاء الكبار في هذا الزمان قد صار أكثرهم نسخة عن شيخه في كثير من الأشياء.

حدثني أحدهم: أن هناك شيخاً فاضلاً في أحد البلدان الإسلامية كان فيه بحة في صوته، فكانت هذه البحة تظهر -لا شعوريّاً- في كثير من طلابه.

ومثال ذلك أيضاً: حركة اليد، تجد كثيراً من طلاب الشيخ يسلكون نفس الطريقة، وخاصة حين يكون الشيخ ذا شخصية قوية مؤثرة في طلابه؛ فإنك

تجد هذه الشخصية منطبعة في نفوس الطلاب. وهذا يدعوك إلى أن تدرك أن قضية التتلمذ ليست قضية أخذ معلومات مجردة، ولكنها تربية وتكوين شخصية التلميذ بإشراف الشيخ. وهذا يؤكد أهمية الأخذ عن الشيوخ الذين يتميزون بالتكامل في شخصياتهم، ويؤكد أيضاً أن الطالب ينبغي أن ينوع أشياخه، فعن أيوب السختياني رحمه الله قال: «إذا أردت أن تعرف خطأ معلمك فجالس غيره»[1].

وليس المقصود أن يكون التلميذ بحّاثاً عن عيوب الشيخ، وإنما المقصود أنه مهما يكن فيه من الكمال ففيه نقص، والنقص من طبيعة البشر. فإذا جالست هذا الشيخ وغيره، واستفدت منهم جميعاً فإنك تستطيع أن تتلافى الأخطاء الموجودة في كل واحد منهم، أما لو اقتصرت على شيخ واحد فإنك قد تتأثر بخطئه.

وهذا لا يعني أبداً: ألا يتلقى الإنسان عن شيخ واحد أكثر مما يتلقى عن غيره.

الوسيلة الثانية: البلغة:

بمعنى أن يكون همُّ الإنسان منصرفاً إلى العلم، غير مشتغل بالدنيا اشتغالاً يلهيه عن طلب العلم، وهذا يستلزم أن يكون لدى الإنسان وسيلة للعيش وللكسب توفر عليه وقته.

وليس المقصود بالبلغة أو انصراف الهمّ إلى طلب العلم هو الانقطاع عن الدنيا انقطاعاً كليّاً. فقد كان النبي ﷺ يمشي في الأسواق ويقضي حوائجه وحوائج

---

١. ينظر: سنن الدارمي (٦٤٣)، وحلية الأولياء (٣/٩)، وجامع بيان العلم وفضله (١/٩٩).

بيته، وكان صحابته رضي الله عنهم يشتغلون بأمور معاشهم.

وإنما المقصود ألا يكون الإنسان مستغرقاً في هموم الدنيا، فالإنسان الذي يسعى ليكون من الأثرياء المرموقين ويصرف وقته في هذا الأمر لن يحصِّل العلم لانشغال فكره وقواه العقلية بهذا الأمر.

الوسيلة الثالثة: طول الزمان:

لقد رأيت من بعض الإخوة حرصهم على العلم والتحصيل ودفع الجهل عن أنفسهم، ولكن لم يكن لديهم تدرج في الطلب ولا مثابرة وصبر، وأصبح أحدهم يريد أن يجمع العلوم كلها في فترة قصيرة، ولقد نقل عن بعض الأذكياء أنه كان يقول: «من أراد أن يحصل على العلوم كلها فيجب على أهله أن يداووه؛ فإنه إنما وقع في هذا التصور لشيء اعتراه».

فلابد أن يفطن طالب العلم إلى ضرورة التدرج في طلب العلم. فالعلم الذي يأتي بسرعة يذهب بسرعة، ومن غير المعقول أن يحصل الشاب على أنواع العلوم في أشهر أو سنوات يسيرة، فإن الإنسان الذي يجهل العلم يظن أن العلم أمر يسير، فإذا انفتح على بعض العلوم بدأ يدرك أن العلم بحر لا ساحل له، وكلما ازداد علم الإنسان ازداد معرفة بجهله، كما قال الشاعر:

وإِذَا مَـا ازْدَدتُّ عِـلْمَـا

زَادَنِيْ عِـلْـمـاً بِـجَـهْـلِـي

فإذا عرف أشياء بدأ يطّلع على ما لا يعرف، وإذا قاس نسبة ما يعرف إلى ما لا يعرف أدرك أنها ضئيلة جدّاً، فيكون لديه تواضع ومعرفة بأنه ليس بعالم، ومعرفة بأنه بحاجة إلى وقت طويل حتى يحصل على العلم الكثير.

إذاً: لابد أن تراعي التدرج وطول الوقت، وأن العلم يثبت بالعمل وبالتربية وبالتعليم، فتعلم شيئاً فشيئاً، وما تعلمته انزل به إلى ميدان الواقع، وادع الناس إليه وعلمهم إياه.

○ ○ ○ ○

بعض الوسائل المهمة في طلب العلم:

ما سبق من الوسائل هي أصول لابد منها، ولكن هناك وسائل خاصة ومهمة أشير إليها باختصار، فمنها:

أولاً: الاجتماع على العلم:

فإن الاجتماع على العلم بركة، ومدارسة العلم مع الآخرين تحرك الذهن، وتنشط العقل، وتفيد الإنسان علماً جديداً، وهكذا كان السلف يوصون بتدارس العلم وإثارته بالمساءلة والمناقشة.

ثانياً: الاستفادةُ من القدرات الشخصية:

أي: الجهد الشخصي في طلب العلم، وكما أننا نقول: إن صحبة الأستاذ من الشروط التي لابد منها في تحصيل العلم إلا أنه يجب أن نضع هذه الوسيلة في إطارها الصحيح وفي موقعها الطبيعي، وأن تقوم بجهدك الخاص في طلب العلم، بالقراءة والحفظ وسؤال العلماء وغير ذلك.

ثالثاً: الاستفادة من إمكانيات العصر:

فهناك إمكانيات لم تُتَحْ لسابقينا، فلو تأملت الكتب التي طبعت اليوم لوجدتها لم تتوفر في عصر من العصور، ولو نظرت للكتب التي توجد في مكتبة أي واحد منا من صغار طلاب العلم، لربما وجدتها أكثر من الكتب الموجودة لدى بعض

العلماء المرموقين المشار إليهم بالبنان في الماضي، فهذه الوسيلة مهمة جدّاً.
وعلى الشاب أن يستفيد بكثرة الاطلاع على هذه الكتب، وتخصيص ساعات في اليوم للاطلاع والقراءة المنوعة في الكتب القديمة والحديثة في ألوان العلوم.
وكذلك الأشرطة، وهي وسيلة مهمة جدّاً، فبإمكان الشاب أن يسمع مجموعة متكاملة من الأشرطة لعالم كبير كالشيخ ابن باز أو ابن عثيمين أو ابن جبرين أو غيرهم من جهابذة العلماء، وحين يكون هذا السماع منظماً متسلسلاً فسوف يستفيد الطالب من ذلك فائدة عظيمة، وهذا لون من ألوان مواكبة ومتابعة دروس العلماء حتى ولو لم يحضرها الإنسان بنفسه.
ومن ذلك: الاستفادة من تقنيات الحاسب والبرامج العلمية، وخدمات البحث عن طريق الأقراص المدمجة (CD)، وكذلك الاستفادة من المواقع والمنتديات العلمية على الشبكة العالمية، فكلها من تقنيات العصر التي يسرت واختصرت المسافات الزمانية والمكانية.

رابعاً: سؤال العلماء:

فأنت حينما تقرأ أو تسمع درساً تثور في ذهنك أسئلة كثيرة جدّاً، فعليك ألا تدع هذه الأسئلة بلا جواب، بل احمل معك مذكرة باستمرار، فإذا أشكل عليك أمر فدونّه، مع ضرورة تصنيف الأسئلة إذا كثرت حسب العلوم من تفسير وفقه وحديث... إلخ، ثم احرص على أن تسأل عنها أهل العلم بالطريقة المناسبة، وإذا حرص الشاب على هذه الوسائل كلها فسوف يحصل -بإذن الله- على علم كثير مبارك.

الباب / 3

أدب السؤال

ونقصد بأدب السؤال: سؤال أهل العلم عما أشكل من أمور الدين، وقد أمر الله بذلك في كتابه العظيم، فقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٤٣)، وأهل الذكر هم أهل العلم العارفون بالكتاب. فكل من لا يعلم فهو مخاطب بهذه الآية، أما الذي يعلم فإنه من أهل الذكر الذين يُسألون.

أصناف الناس في العلم:

فالناس بمقتضى هذه الآية صنفان:

الصنف الأول: **أهل الذكر: وهم أهل العلم والمعرفة (المفتون) الذين يُسألون عن الحلال والحرام وسائر الأحكام.**

الصنف الثاني: **هم الذين لا يعلمون: فيحتاجون إلى أن يسألوا الذين يعلمون،** والذين سماهم الله أهل الذكر، وهذا ما أرشد إليه النبي ﷺ، كما في حديث

جابر رضي الله عنه، أنه قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجر، فشجه في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك، فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؛ فإنما شفاء العِيِّ السؤال! إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر، أو يعصب على جُرحه خرقة، ثمّ يمسح عليها، ويغسل سائر جسده»[١].

فالذي فيه عِيٌّ وجهل شفاؤه أن يسأل، فأمرهم النبي ﷺ إذا لم يعلموا أن يسألوا من يعلم، فإن السؤال هو شفاء العي والعجز والجهل.

وهكذا في الصحيحين قصة الرجل الذي كان ابنه يعمل عند رجل عسيفاً -أي: أجيراً- فزنى بامرأته، فافتدى من زوج المرأة بمائة شاة ووليدة، ثم جاء إلى النبي ﷺ، فأخبره بذلك وقال: سألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مائة، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال له النبي ﷺ: «لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم -التي افتديت بها- ردٌّ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغدُ يا أنيس إلى امرأة هذا؛ فإن اعترفت فارجمها». فغدا عليها فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت[٢].

والشاهد: أن الرجل قال: فسألت أهل العلم فأخبروني؛ فأقرَّه على ذلك ﷺ

---

١. أخرجه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (١/١٨٩)، والبيهقي في الكبرى (١/٢٢٧).
وأخرجه أحمد (٢٨٩٨)، وأبو داود (٣٣٧)، وابن ماجه (٥٧٢)، وابن خزيمة (٢٧٣)، والحاكم (٥٨٥، ٦٣٠، ٦٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢. صحيح البخاري (٢٣١٥)، وصحيح مسلم (١٦٩٨).

ولم ينكر عليه سؤاله أهل العلم، مع أنه ﷺ كان حاضراً بين ظهرانيهم.

وإن من النعم التي نشكر الله عز وجل عليها: ما نشهده من إقبال المسلمين -عامتهم وخاصتهم- على العلماء في مثل هذه الأزمنة، يسألونهم ويستفتونهم، وهذه نعمة عظيمة تجددت بعد أن أقصي العلماء عن واقع الحياة في عدد من البلدان زماناً طويلاً، لا يُذكرون إلا للسخرية بهم، والتندر عليهم في أجهزة الإعلام وفي غيرها.

فأما الخاصة، فإنك تجد الطبيب يشكل عليه الحكم الشرعي في الطب، فيسأل العالم والفقيه، وتجد العالم بالاقتصاد والمال يشكل عليه الأمر، فيسأل العالم، وتجد الأمراء والزعماء والملوك يقبلون على العلماء فيسألونهم؛ لأنهم يعلمون أن الأمة لا تقبل بالعلماء بديلاً، ولا ترضى إلا قول العالم، وهذا يدل على أن هذه الأمة قد وجدت طريقها بإذن الله تعالى.

هذا أمر نحمد الله عليه، ونقول: إنه ليس بالأمر الغريب، بل هو الأمر الطبيعي، والغريب غيره، فإن الأمة من لدن محمد ﷺ لا معنى لكونها أمة مسلمة، إلا لأن الشريعة هي الحاكمة لحياتها كلها، وهي الضابط الذي تنضبط به كل أمور الأمة صغيرها وكبيرها، ومن أجل هذا كان لا بد للأمة من الرجوع إلى العلماء، ليبيِّنوا لها أحكام دينها.

وحكم الدين، لا يُسأل فيه كل أحد، وإنما يسأل فيه أهل الذكر وأهل العلم.

○ ○ ○ ○

بعض آداب السؤال التي ينبغي على السائل مراعاتها:

من خلال مجالسة بعض الشيوخ، من أساتذتي وأشياخي وزملائي الذين يسألهم الناس كثيراً، استقرأت بعض الأخطاء الموجودة، وبعض الآداب المفقودة، التي لابد أن يراعيها السائلون، وكلنا محتاج إلى أن يسأل، حتى لو كان عنده بعض العلم في الشرع وبعض المعرفة بالأحكام.

الأدب الأول: الاختصار في السؤال:

الوقت ثمين، وهو سريع التقضي، أبيّ التأتيّ، بطيء الرجوع، وكثير من الناس قد يكون إحساسه بمشكلته أكثر من إحساسه بوقت غيره، لذلك إذا أراد أن يتكلم في قضية أطال وأطنب في ذكر تفاصيل لا حاجة لها من قريب ولا من بعيد.

فمثلاً: إذا كان يريد أن يسأل عن الكفارة عن رجل مات في حادث سيارة، فيبدأ يسرد تفاصيل لا تتعلق بالحكم، ولا تؤثر فيه من كونه في يوم كذا في شهر كذا، سافر من بلد كذا، قاصداً بلد كذا، ثم يذكر أموراً كثيرة ليس لها أي تعلُّق بالأمر.

وبعض الناس يحب إيراد القصة على سبيل الرواية والحكاية، مع أن وقت الآخرين قد لا يتسع لسماع مثل هذه التفاصيل التي لا فائدة من ورائها.

وأحياناً يكون السؤال بالهاتف، فتجد السائل قبل أن يطرح سؤاله يسترسل بأسئلة عن الأحوال والعيال والأمور والصحة، وما أشبه ذلك مما لا جدوى من ورائها.

وتأمل هذا الأمر -مثلاً- في حال بعض مشايخنا الذين خصصوا أوقاتاً

للسؤال، كسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، أو الشيخ محمد بن عثيمين رحمهما الله، أو الشيخ عبد الله بن جبرين، أو الشيخ صالح الفوزان، أو غيرهم من المشايخ حفظهم الله، إذ يسألُ أحدَهم في اليوم عشرات السائلين، فتصور كم تضيع من أوقاتهم إذا كان كل سائل استرسل في سؤال الشيخ عن حاله وأهله وأولاده وأرحامه؟!

ولذلك، فإن على السائل أن يراعي الاختصار وترك الإطناب، حتى في السؤال عن الحال.

الأدب الثاني: مراعاة مناسبة الوقت في الاتصال:

إن كون الرجل مفتياً أو عالماً لا يعني فراغه من كل شغل وعمل إلا الفتيا، فهو كغيره له مع أهله شغل، وتعتريه العوارض والصوارف، والحقوق عليه كثيرة، ولابد أن يقوم بها جميعاً، وليس من الحق أن يزيد في بعضها ما ينقص في بعضها الآخر، وله في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، ففي «صحيح البخاري» لما سئلت عنه عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج»[1]. ولذلك وضع الشارع حدوداً وآداباً للدخول والخروج، والاستئذان والمحادثة وغير ذلك.

ومن هذا: ما يتعلق بالهاتف، فإن من الناس من لا يتحين الوقت المناسب للاتصال، ويظن أن ما يناسبه يناسب غيره، وبعضهم يتصل كلما عرضت له

١. صحيح البخاري (٥٣٦٣).

حاجة، وإذا كان الاتصال نوعاً من الاستئذان فليراعى فيه الأدب.

كذلك يجب الاستئذان عند الدخول، وينبغي مراعاة الأدب في طرق الباب، يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ○ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ○ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (النور:٢٧-٢٩).

إن بعض الإخوة يعتب على الشيخ إذا لم يظفر بطلبه عنده؛ لأنه لا يقدِّر إلا الوضع الذي يعيشه هو، ولا يقدر ظروف الآخرين، ولنفترض أن الشيخ الذي تريد أن تتصل به يقظان، فهل يعني هذا أنه ليس له هَمٌّ إلا الفتيا والإجابة على الأسئلة؟ ألا يحتمل الأمر أن تكون له شواغل غير هذا؟! أليس بحاجة إلى أن يخلو بنفسه، وبحاجة إلى أن يقرأ أو يكتب أو يراجع علمه ويبحث في بعض المسائل ؟!

إذاً: فحق على المتصل تقدير كل هذه الظروف، ثم معرفة الوقت المناسب للاتصال.

الأدب الثالث: التأدب في الخطاب:

ينبغي على الإنسان إذا خاطب شيخاً أن يتلطف في الخطاب ويتأدب؛ فلا يخاطبه بعبارة نابية أو بلفظ غير لائق، فجميل ما يفعله بعض السائلين حين

يمهد لسؤاله بقوله: إن الله لا يستحيي من الحق. أو: لا حياء في الدين.
ومن التأدب في الخطاب أن يخاطبه بصوت هادئ وأسلوب لين، فلا يرفع صوته ولا يجفو في أسلوبه، ويوطئ لسؤاله بالدعاء.
ومن أدب العامة الحسن: بدؤهم السؤال للشيخ بعبارة: أحسن الله إليك.
وكذلك ختم الاستفتاء بالشكر والدعاء؛ فإن هذا من المكافأة على المعروف.
ومن غير اللائق ما اعتاده بعض الناس من أنه إذا سأل الشيخ قال: أنت فهمت. وإذا سمع الجواب عقّب عليه قائلاً: متأكد يا شيخ! مما يوحي بعدم الثقة بالمسؤول.

الأدب الرابع: الإيضاح وتجنب الإبهام في السؤال:
وذلك لأن فتوى العالم كقضاء القاضي، لا تحرِّم حلالاً ولا تحلِّل حراماً.
فلو فرضنا أنك اختصمت أنت وشخص على أرض، وحضرتما عند القاضي، وكنت ألحن بحجتك وأبلغ في الكلام من خصمك، فغلبته بالحجة، وحكم لك القاضي -والواقع أن الأرض لخصمك- فحُكم القاضي لا يجعل الأرض حلالاً لك، لأنها ليست لك حقيقة، ويوم القيامة تعاقب على ما غصبته من حق أخيك، ولو كان بحكم القاضي، ما دمت تعلم أنها له وليست لك.
والرسول ﷺ يقول -كما في الصحيحين من حديث أم سلمة رضي الله عنها-: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون أَلحن بحجته من بعض - أي: أقوى في التعبير وأبلغ - فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت

له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار»[1].

إذاً: الفتوى لا تحلّل الحرام ولا تحرّم الحلال؛ لأن المفتي يفتي في المسألة التي وصفت له، لا في المسألة الواقعة والتي خالفها السؤال وأخفي بعض حقيقتها. فعلى السائل أن يعرض سؤاله على الشيخ المسؤول عرضاً دقيقاً أميناً واضحاً، حتى يحظى منه بالجواب المناسب لسؤاله، أما إذا لبّس السؤال ليحظى بفتوى توافق هواه، فإن إثمه عليه ولا يلومن إلا نفسه.

وبعض الفتوى تتعلق بنية السائل، فلابد من بيان قصده بالكلام، والنية لا يطلع عليها إلا الله عز وجل، ولا يعرفها المفتي إلا من قبل السائل نفسه، ومن هنا تأتي أهمية الوضوح وعدم الإبهام في السؤال، وأن يعبر السائل أوضح تعبير عمّا يريد، فيذكر ما له تعلق بالسؤال، أو ما يظن أن له تأثيراً في الحكم، حتى يكون الجواب مطابقاً للسؤال.

الأدب الخامس: عدم ضرب أقوال المفتين بعضهم ببعض:

وذلك لأن العلماء كلهم مجتهدون، كما قال القائل:

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ

غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

وقد وقع الخلاف بين أصحاب رسول الله ﷺ، والرسول حي بين أظهرهم، ومن ذلك: حديث الصلاة في بني قريظة، حيث قال ﷺ: «لا يصلين أحد العصر

---

١. صحيح البخاري (٢٦٨٠)، وصحيح مسلم (١٧١٣).

إلا في بني قريظة». فأدركهم الوقت في الطريق، فصلى بعضهم خشية خروج الوقت، وأخَّر الباقون الصلاة حتى وصلوا إلى بني قريظة، خوفا من الوقوع في مخالفة أمر النبي ﷺ، فلما أخبروا النبي ﷺ لم يعنف أحداً منهم [١].

وإذا كان هذا حال الصحابة، فما بالك بمن بعدهم؟!

وهذا يؤكد أن الخلاف مستمر بين العلماء، فليس صحيحاً أن نعتقد أنه سوف يأتي يوم يرتفع فيه الخلاف ويصبح الناس كلهم على قول واحد، فهذا لا يمكن أن يكون إلا في حال واحدة: إذا غلب الجهل وعمَّ، وصار الناس كلهم جهالاً، أما مع وجود العلماء فإنه لابد من وقوع الخلاف، وهذا لا ينقص من قيمة العالم ولا يضر بالشرع، ولا يؤدي إلى اضطراب العامة، لكن بشرط أن يعرف الناس كيف يتعاملون مع هذا الخلاف.

والناس أحد رجلين: إما طالب علم أو عامي.

فإذا كان طالب علم يستطيع التمييز بين الأدلة، فإنه يجب عليه أن يأخذ بأصح أقوال العلماء.

وأما إذا كان عاميّاً ولا يحسن النظر في الأدلة فإنه يقال له: انظر من تثق بعلمه ودينه من هؤلاء العلماء -أي: من تعتقد أنه أعلم وأدين وأورع- فخذ بقوله، واترك الأقوال الأخرى، ولا تشتغل بضرب الأقوال بعضها ببعض.

كذلك لا تأخذ هذا القول وتفتي به الناس، وكأنك أصبحت مالكاً أو أبا حنيفة، بل اعمل به في ذات نفسك، واترك الناس يسألون العلماء، كما سألت أنت.

---

١. أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

الأدب السادس: تصحيح القصد من السؤال:

فهناك إنسان عنده مسألة يريد معرفة الحكم فيها، فهذا لا حرج عليه أن يسأل، بل قد يجب عليه.

لكن بعض السائلين يسألون لمجرد الاستمتاع بمحادثة الشيخ فلان، وحتى يقول للناس بعد ذلك: لقد تحدثتُ مع الشيخ فلان، وقلت له كذا، وقال لي كذا. وهذا ليس غرضاً شرعيّاً.

وبعضهم يسأل لمجرد استطلاع رأي الشيخ، ولا حاجة له في السؤال غير هذا، وهذا ليس من الأغراض الشرعية، ولا يليق إضاعة وقت العلماء في مثل هذا.

وبعضهم يسأل بغرض الإحراج، فيسأل العالم عن مسألة غريبة؛ بقصد التعجيز أو الاختبار، ويكون السائل قد قرأ فيها طويلاً وتعب في ذلك، فإذا لم يستطع الشيخ الإجابة على سؤاله نبزه بالجهل وقلة العلم، وهذا من سوء الأدب.

وبعضهم يسأل بغرض إيذاء إنسان آخر خالفه في المسألة، فيقول -مثلاً-: يا شيخ: ما تقول فيمن يقول كذا؟ وما رأيك فيمن يزعم كذا وكذا؟ وما رأيك فيمن يدعي كذا وكذا؟ فكونه يسميه زَعْماً أو دعوى، هذا يشير إلى أن هذا الكلام غير صحيح، أو يقول -مثلاً-: يا شيخ! ما رأيك في بعض الناس الذين انحرفوا عن سواء السبيل وقالوا كذا أو فعلوا كذا؟ فيتضح من السؤال أنه يريد جواباً موجهاً، وليس سؤالاً بريئاً يقصد من ورائه الاسترشاد.

• • • •



الباب / 4

مآخذ على طالب العلم

الآفات التي تعترض المسلم كثيرة، وهي تعترض طالب العلم وغيره، لكنا نقصر الحديث في هذا الفصل عن الآفات والأخطاء التي يقع فيها طالب العلم، مما هو شائع في هذا العصر.

وجدير بالذكر أن هذه الآفات والعيوب يصعب حصرها والحديث عنها، ولذا أشير إلى بعض الكتب المهمة، التي تَحَدَّث فيها مُصَنِفُوها عن هذه المثالِب والمعايب، وأتوا فيها بالعجب العجاب، وأنصح أن يحرصوا على مراجعة هذه الكتب، والاتصال الدائم بها.

فمن هذه الكتب:

كتاب «العزلة» للإمام الخطابي.

وكتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي، في الجزء الأول منه، حيث تحدث عن آفات طلب العلم.

وكتاب «تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم» للسمعاني، وهو يذكر الآداب، ويذكر مع كل أدب جوانب من الإخلال بهذا الأدب.

وما كتبه الإمام ابن القيم في عدد من كتبه كـ «زاد المعاد»، و«إغاثة اللهفان»، و«مدارج السالكين»، و«إعلام الموقعين».

وما كتبه الإمام الذهبي في رسالة صغيرة نسبت إليه، وبعضهم يُشكك في نسبتها، لكن الظاهر أن نسبتها إليه صحيحة، واسمها: «بيان زغل العلم».

وكذلك ما كتبه الإمام ابن الجوزي في كتاب «تلبيس إبليس»، وهو كتاب مهم جداً، ومفيد لكل مسلم، ولاسيما طالب العلم. وكذلك كتابه «صيد الخاطر» في مواضع متفرقة منه.

وكذلك ما كتبه الإمام ابن حزم في كتاب «الأخلاق والسير ومداواة النفوس».

وما كتبه ابن السبكي في كتاب «معيد النعم ومبيد النقم».

وفي حديثي عن الآفات سأقسم الموضوع إلى قسمين:

القسم الأول: الآفات التي تعترض طالب العلم في علاقته مع ربه.

القسم الثاني: الآفات التي تعترض طالب العلم في علاقته مع الناس.

○ ○ ○ ○

أولاً: الآفات التي تعترض طالب العلم في علاقته مع ربه:

القصد من العلم هو إصلاح ظاهر الإنسان وباطنه، وإصلاح الباطن يترتب عليه إصلاح الظاهر، لقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «إن في الجسد مضغة إذا صَلَحت صَلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١].

وواجب على طالب العلم أن يحرص على صلاح قلبه وتوجهه إلى الله تبارك وتعالى، وأن يكون مقبلاً على الله والدار الآخرة معرضاً عن الدنيا وزخرفها، ولذلك فإن الفقيه عند السلف هو: العابد الزاهد المقبل على الله.

جاء عمران المنقري إلى الحسن البصري رحمه الله، فسأله عن مسألة، فأفتاه فيها، فقال له: يا أبا سعيد! ليس هكذا يقول الفقهاء! فقال له الحسن رحمه الله: «ويحك، ورأيت أنت فقيهاً قط؟! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه، المداوم على عبادة ربه»[٢].

وهذا المعنى قد أخذه الحسن وغيره من السلف رحمهم الله من كتاب الله تعالى، فإنهم كانوا يَعُدُّونَ العلم هو الخشية، أخذاً من قول الله عز وجل: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر:١٣)، فوصفهم بقلة الخشية من الله وكثرة الخشية من المخلوقين، لقلة فقههم وعلمهم، وكلما زاد فقه المرء زادت خشيته لله.. كما يجب على طالب العلم

١. صحيح البخاري (٥٢)، وصحيح مسلم (١٥٩٩).

٢. ينظر: الزهد لابن المبارك، بزوائد نعيم بن حماد (٣٠)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٥١٨٨)، وسنن الدارمي (٢٩٤)، والزهد لابن أبي الدنيا (١٢٣)، وحلية الأولياء (٢/١٤٧).

أن يظهر أثرُ العلم في سَمْتِهِ وهديه، وإقباله على الله عز وجل.
وهنا أذكر بعض الآفات التي تعرض لطالب العلم في علاقته مع ربه:

أولاً: إن كثيراً من طلبة العلم في هذا العصر، بل ومن قبل يلامون بضعف عبادتهم وانشغالهم بكثير من المسائل الفقهية الدقيقة التي قد لا يحتاجون هم إليها، وقد لا يحتاجها الناس، وربما ضيع الواحد منهم عمره، وسافر، وجمع الكتب، وقرأ الأجزاء من أجل هذه المسألة، في مقابل ذلك قد يُخِل بقضية من القضايا المهمة في حياته.

ويذكر السبكي رحمه الله في كتابه: «معيد النعم» أن بعض طلبة العلم المعرضين عن القيام بالواجبات الدينية وسلوك طريق الآخرة يحتجون بأوهى الحجج، فإذا قلت لأحدهم -مثلاً-: هل صليت السنة الراتبة بعد صلاة الظهر؟ احتج بأن الإمام الشافعي رحمه الله يرى أن الاشتغال بالعلم أولى من الاشتغال بنوافل العبادات، فيترك السنة الراتبة ليشتغل بالعلم. فإذا سألته عن نسيانه للقرآن؟ قال لك: إن نسيان القرآن لم يَعُدُّه أحد من أهل العلم كبيرةً من كبائر الذنوب إلا صاحبا «العدة» و«العمدة». وكذلك يقول لك: أنا لم أنسَ القرآن كله، فأنا أحفظ الفاتحة -ولعله أيضاً يحفظ معها قصار السور- ثم ما الدليل على أن هذا الأمر محرم؟ فتخلى عن حفظه للقرآن بهذه الحجج! فإذا سألته: هل خشعت في صلاتك؟ قال لك: إن الخشوع في الصلاة ليس من شروطها ولا من أركانها.. وهكذا.

ثانياً: أن يتخذ الطالب ما يعلمه من بعض الأحكام مطيةً إلى التخلي عن كثير من الفضائل التي لابد منها لطالب العلم، ولذلك عقب السبكي رحمه الله على هذا بقوله: وهذه كلمةُ حق أُرِيدَ بها باطل.

ثم استطرد الإمام السبكي رحمه الله في هذه المسألة وذكر أن بعض الطلاب قد يريد أن يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥). وهذه الآية فيها من التوكل والإقبال على الله وإفراده بالعبادة والاستعانة ما فيها، فربما تسبق إلى لسانه كلمة أخرى من كلمات الفروع الفقهية التي طالما اشتغل بها.

وابن الجوزي رحمه الله في كتابه: «صيد الخاطر» بعد أن تحدث عن شيوخه الذين تلقى عنهم العلم، وعدّد بعضهم، أشار إلى أن بعضهم كان يشتغل ببعض ما لا يسع العالم الاشتغال به، وذكر أن من أكثرهم أثراً عليه عالماً يقال له: عبد الوهاب الأنماطي.

قال: «كان على قانون السلف، لم يسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقاق بكى، واتصل بكاؤه.

فكان- وأنا صغير السن حينئذ -يعمل بكاؤه في قلبي ويبني قواعد...».

ثم قال: «ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول»[1].

ويظهر من هذه الحكاية وغيرها أن أثر القدوة الصالحة أعظم من أثر النصيحة. وعلى طالب العلم أن يتنبه إلى محاسبة نفسه وإصلاحها، وعلى الحرص على التعبد، وتليين قلبه بالقرب من الله عز وجل.

---

١. ينظر: صيد الخاطر (ص: ١٤٠).

قدر العبادة التي لا ينبغي لطالب العلم أن ينحط عنها:

لسنا نطالب أن يكون أحدنا كعباد الصحابة، أو كعُبَّاد التابعين، ولكن هناك قدر معين ينبغي لكل طالب علم ألا يرضى لنفسه أن ينحط عنه، وإذا انحط عنه فيجب عليه أن يعيد النظر في نفسه ويحاسبها قبل أن يباغته الأجل وهو على حال لا تُرضي، وألخص هذه الأشياء المطلوبة من طالب العلم في أربعة أمور:

الأمر الأول: القيام بأداء ما افترض الله عليه من الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها من الفروض، وكذلك صلاة الجماعة وخاصة صلاة الفجر، فإن صلاة الفجر فيصل يدل على إيمان العبد أو ضعف إيمانه، وفي أثر ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا إذا فقدنا الإنسان في صلاة العشاء الآخرة والصبح أسأنا به الظن»[1].

الأمر الثاني: المحافظة على السنن الرواتب، والوتر، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وأن يكون له ورد من قراءة القرآن لا يتركه في جميع الأحوال، وورد من الأذكار في الصباح والمساء وإن قل، فإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل.

الأمر الثالث: أن يحرص على تحقيق المعنى الذي شُرعت من أجله هذه العبادات، فإن من المعلوم أن الله عز وجل لم يشرع هذه العبادات ليكلفنا

---

١. أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٥٣)، وابن خزيمة (١٤٨٥)، وابن حبان (٢٠٩٩)، والحاكم (٧٦٤)، وغيرهم.

أو ليعذبنا، فإن الله غني عن تعذيبنا، وإنما شرعها لتهذيبنا وإصلاح نفوسنا وسرائرنا، فعلى المسلم -ولاسيما طالب العلم- أن يجاهد نفسه على أدائها بحضور قلب واحتساب وصلاح نية.

الأمر الرابع: أن يجتنب المحارم ما استطاع، ويحفظ نفسه من قول الزور والغيبة والنميمة وأكل الحرام وظلم الناس، وما أشبه ذلك من المحرمات المعلوم تحريمها.

فهذه أربعة مطالب لابد منها لطالب العلم، حتى يستقيم سيره إلى الله تبارك وتعالى، وإذا أخل الطالب بها فعليه أن يبكي على نفسه، ويقول مع القائل:

لِنَفْسِي أَبْكِي لَسْتُ أَبْكِي لِغَيرِهَا
لِنَفْسِي مِنْ نَفْسِي عَنِ النَّاسِ شَاغِلُ

وليتذكر الكلمة التي قالها الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «المسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاته لذات الدنيا وخيرات الآخرة، فقدم مفلساً، على قوة الحجة عليه»[1].

فمن لم يرد وجه الله وعبادته بهذا العلم فهو مسكين؛ لأنه خسر هذه الدنيا فلم يتمتع بلذاتها وزخارفها كما تمتع غيره من الفساق والمنحرفين، حيث كان منشغلاً بطالب العلم وتحصيله، ولم يقبل على الله عز وجل فحرم من لذات الآخرة؛ لأنه لم يسع لها ولم يطلبها، فيقبل على الله عز وجل أفقر ما كان،

١. صيد الخاطر (ص: ١٤٠).

والحجة عليه أقوى ما كان، فالحجة على العالم ليست كالحجة على الجاهل.

ثانياً: الآفات التي تعترض طالب العلم في علاقته مع الناس:

وهنا أقتصر على ذكر آفة واحدة لأهميتها:

فمن الملحوظات على بعض طلاب العلم في هذا العصر أنهم يعيشون عزلة عن الواقع الذي حولهم، وذلك لأن لطلب العلم لذة يدركها من جربها، فطالب العلم إذا أكثر من البحث والمراجعة والقراءة يصبح عنده تلذذٌ للحصول على المعلومات، وإذا أشكلت عليه مسألة من المسائل وبحث ولم يجدها ازداد لهفة وشوقاً إلى معرفتها، فإذا عثر عليها أصبح كأنه عثر على كنز ثمين، وهذه اللذة عامة في العلوم الشرعية وغيرها، وهي مغروزة عند الإنسان، لكن قد تزيد عند طالب العلم الشرعي إذا حسنت نيته، فهو يفرح بمعرفته لحكم شرعي يحتاج إلى أن يعرفه ويعرفه غيره، وقد قال الأول وهو يتغزل بقراءة الكتب ومعايشتها:

لَـنَـا جُلَسَاءُ لَا نَمَـلُّ حَدِيثَهُمْ
أَلِـبَّـاءُ مَـأمُـونُـونَ غَيْباً وَمَشْهَداً

وهناك أبيات كثيرة يمتدح فيها العلماء الكتب والقراءة، وذلك لأن الكتب صماء تأخذ منها ما تشاء وتدع ما تشاء، والإنسان إذا ضجر من واقعه لجأ إلى هذه الكتب لسهولة التعامل معها، كما أنه ليس ثمة ذهاب ولا إياب ولا كلفة ولا مشقة، فلذلك يَنْجَرُّ كثير من الطلاب وراء هذه اللذة والراحة، ويشتغلون بالطلب والقراءة، وشيئاً فشيئاً يفرضون على أنفسهم طوقاً من العزلة عن

الواقع، حتى يصبح بعضهم وكأنه يعيش في أبراج عاجية، كما كان الفلاسفة يعيشون في أبراج عاجية، فقد كان الفلاسفة يعيشون في مكتباتهم، والناس يعيشون في عذاب من تسلط الطغاة، ومن مشكلات كانت قائمة فيما بينهم، والفلاسفة مشغولون بتكوين أو دراسة ما يسمى بـ «المدينة الفاضلة».

فالفيلسوف يصور تصويراً خياليّاً مدينة فاضلة فيها كمال مطلق من كل ناحية، والناس يعيشون في عذاب في واقعهم، وليس له علاقة بهم، فقد يصل الحال -أحياناً- ببعض الطلاب إلى هذا الحال للأسباب السابقة، وربما يُتهم بعض طلاب العلم الشرعي بأنهم يجهلون هذا الواقع، وما يجري في حياة الناس، وما جد في هذه الحياة من أمور حادثة لم تكن معروفة من قبل.

وفي هذا العصر حصل تغير كامل في كثير من مجالات الحياة لم يعهد الناس مثلها، من تفجر ثورة المعلومات ومن الابتكارات في العلوم والصناعات في أمور لا عهد للناس بها قديماً.

فتجد بعض طلاب العلم يفتخر بأنه لا يعرف هذه الأشياء، ولا يدري عنها شيئاً، والواقع أن انعزال الإنسان عن واقعه ليس فيه ما يدعو إلى الفخر، بل إن طالب العلم المحقق لعلمه يحرص على أن ينزل بعلمه إلى واقع الحياة، وأن يعلم مسألة من الشرع فيتعلمها ويعمل بها ويُعَلِمُها غيره ويدعو إليها وينكر ما خالفها، وهذا خير من أن يكون مليئاً بعلوم نظرية مجردة لا تفيد في واقع الناس شيئاً.

إن من شرف العلم أنه يدعو إلى العمل والمعرفة، فلماذا يشتغل طالب العلم

في كثير من الأحيان بقضايا جزئية في فروع العلم؟ وربما يتخصص فيها ويكتب رسائل عليا في هذه القضية الجزئية التي قد لا يُحتاج إليها إلى قيام الساعة في الوقت الذي يجهل فيه أو يتجاهل قضايا ملحة في واقع الناس.

إن كل علم ثمرته العمل به والدعوة إليه، فإذا كان حظ طالب العلم من العلم هو تحصيله في نفسه، فإن هذا العلم يموت بموته، فحينئذٍ لم يحقق ما يتطلبه منه العلم.

فالجدير بطالب العلم أن يختلط بالناس الاختلاط الواعي الذي يؤثر في الناس ويوجههم، ويعرف عيوبهم؛ ليتفاداها وليحذر منها، ولذا قد يتحدث اليوم اثنان من الناس عن أمر من الأمور، فيحدث أحدهما حديثاً شرعيّاً، يذكر الآيات والأحاديث التي ذكرها أهل العلم، فيكون حديثه على فائدته غير مرتبط بالواقع، ثم يأتي إنسان آخر يعيش الواقع، فنجد أنه يربط حديثه بمشكلات الناس، ويعيش واقع زمانه وما يعانونه، فيجد الناس البلسم والشفاء لمشكلات حياتهم في مثل هذه الأحاديث.

وطالب العلم ينبغي ألا يعزل نفسه عن المجتمع، بل يجعل ما يواجه من المجتمع مادة للحديث وربطاً للقضايا الشرعية بالواقع.

○ ○ ○ ○

هدي النبي ﷺ في معايشة الواقع:

ما أحوج الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها إلى الجمع بين العالم الشرعي المتمكن من العلم الشرعي ومعرفة الواقع، بحيث يستطيع أن يحل مشكلات الواقع بالكتاب والسنة، فما أحوج الناس إلى مثل هذا العالم!

وقد كان ﷺ يعرف واقع الناس وأوضاع العالم السياسية وغيرها، ولذا اختار الحبشة مهجراً لأصحابه؛ لأن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد [١].

وكان يعرف ما يقع في فارس والروم ومصر وغيرها، ولذلك راسلهم، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي -وليس بالنجاشي الذي أسلم- وإلى كل جبّار، يدعوهم إلى الله عز وجل [٢].

بل كان ﷺ يعرف القضايا الأدبية والشعرية؛ لأنه كان يغشى الناس في أسواقهم في عكاظ، ومجنة، وذي المجاز، وغيرها، ويعرف كثيراً من أوضاعهم الاجتماعية.

فالرسول ﷺ كان يعرف واقع الناس الذين يريد أن يدعوهم، وهكذا يجب أن يكون المقتدون به.

نماذج وصور من اهتمام السلف بمعايشة الواقع:

فعلماء السلف رضي الله عنهم اهتداءً واقتداءً بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم كانوا يعايشون الواقع، وكذا العلماء المشهورون، حتى إنه ليصح أن

---

١. ينظر: سيرة ابن هشام (٢/١٦٤)، وتاريخ الطبري (١/٥٤٦)، وسنن البيهقي الكبرى (٩/٩)(١٧٥١٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٠١)، وزاد المعاد (١/٩٥).

٢. أخرجه مسلم (١٧٧٤).

تقول: إنهم كانوا أوصياء على هذا الواقع، فهم يوجهون واقع الناس على ما تقتضيه شريعة الله عز وجل.

وانظروا إلى هذه القصص العجيبة التي لا تعدو أن تكون أمثلة يسيرة جداً:

يذكر المترجمون للمنذر بن سعيد البلوطي رحمه الله [1]: أنه كان قوياً في الحق، وكان ذا علاقة بالمجتمع وبالسلاطين في عصره، وكانت علاقته بهم ليست علاقة استجداء، وإنما علاقة قوامة وأمر ونهي، فقد بنى أحد ولاة الأندلس قصراً مشيداً وزينه بالذهب والفضة، وأسرف فيه أيما إسراف، ثم دعا الوزراء والحاشية والعلماء وغيرهم، فجعلوا يثنون ويمجدون ويعجبون من حسنه وجماله، فحضر المنذر بن سعيد رحمه الله لصلاة الجمعة -وكان الخليفة يصلي معه وتحت منبره- فوقف المنذر بن سعيد وألقى خطبة عصماء، تلا فيها قول الله عز وجل: ﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ○ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ○ وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف:٣٣-٣٥).

ثم قال -يخاطب الخليفة ويوبخه على ما فعل-: والله ما ظننت يا أمير المؤمنين أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، أن أنزلك منازل الكفار، فتشبهت بفرعون وهامان وقارون، وأسرفت في الأموال، وضيعت أموال المسلمين، وفعلت وفعلت. وظل يورد على السلطان من القول المتين القوي، والسلطان تحت منبره، فما زاد

١. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٦/١٧٧)، وتاريخ الإسلام (٢٥/٤٤٣-٤٤٤)، والبداية والنهاية (١١/٢٨٨-٢٨٩).

السلطان على أن أقسم ألا يصلي معه مرة أخرى، فكان يذهب إلى مسجد آخر ليصلي معهم، ثم إنه كفّر عن يمينه، ورجع ليصلي مع المنذر بن سعيد رحمه الله.

وهذا الموقف قد يكون في أذهان الكثير منا أقرب إلى الخيال والأسطورة.

وهنا موقف آخر لعبد العزيز بن عبد السلام، المشهور بالعز بن عبد السلام سلطان العلماء رحمه الله: كان في دمشق، وكان حاكم دمشق هو الملك الصالح إسماعيل، فتعاون هذا الرجل مع أعداء الإسلام، وأسلم إليهم بعض المدن، فغضب عليه الإمام العز بن عبد السلام، وعاتبه، وقطع الدعاء له في الخطبة، وحرّض العلماء على ذلك، ثم خرج من دمشق وتركها مهاجراً إلى غيرها، فمر ببعض المدن الصغيرة في الشام، فطلب منه بعض أمرائها أن يبقى عندهم، فقال: «إن بلدك صغير على علمي». وذهب إلى مصر، وكان فيها الملك الصالح أيوب، فاستقبله وأكرم مثواه [١].

ولا يمكن أن نتجاهل في هذا المقام مواقف عظيمة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأخص منها ما يتعلق بإنكار المنكرات الكبرى التي يقف وراءها أناس ذوو قدر، ويصعب على الدهماء أن يغيروها، فقد جاء التتار إلى بلاد الشام، وغزوها، وأهلكوا الحرث والنسل، وخاف الناس منهم، حتى العلماء، فذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى الولاة في مصر، والتقى بالسلطان، وتكلم معه بكلام قوي أعجب العلماء كابن دقيق العيد وغيره [٢]، وكان من ضمن

---

١. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ٢١٠)، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢/ ١١٠).

٢. ينظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (ص:٣٤١).

ما قاله: «لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه، واستنصركم أهله، وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم، وأنتم مسؤولون عنهم»[1].

وقال أيضاً: «إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن».

فابن تيمية رحمه الله يقول له: إن تخليتم عن الشام، فإننا نقيم له من يستغله في زمن الأمن، ويحوطه ويحميه في زمن الشدة، وحَرَّض هذا السلطان على الغزو، ووعده بالنصر حتى تحرك هذا السلطان، وخرج بجنده، وفعلاً انتصر المسلمون على التتار، كما هو معروف.

وكان لابن تيمية مواقف كثيرة مع السلاطين غير هذه، وهذه النماذج تدل على المكانة التي كان يتبوؤها علماء السلف في مجتمعهم.

وموقف الناس من مثل هذه الأحداث الشهيرة التي يذكرها المؤرخون في سير العلماء يتفاوت، فمن طلاب العلم من يعتبرها مجرد طرائف يتلذذ بذكرها وسردها وتزيين المجالس بها. ومن الناس من يفكر بتطبيق هذه الأحداث والقصص بحذافيرها، دون أن يتصور الظروف التي وقعت فيها هذه القصص، والشخصيات التي قامت بهذه الأعمال، فيقع في خطأ غير مناسب، ويكون أمراً ونهياً في غير أوانه.

والواقع أنه يجب أن ينظر إلى الظروف التي وقعت فيها هذه القصص، فالمنذر

---

١. ينظر: البداية والنهاية (١٤/١٥).

ابن سعيد أو العز بن عبد السلام أو ابن تيمية رحمهم الله، لم يكونوا أناساً مجهولين أو طارئين على الموقف، بل إن ابن تيمية والمنذر بن سعيد والعز بن عبد السلام وجميع علماء الإسلام المشهورين كانوا متغلغلين في المجتمع، وكان لهم تأثير ووقع ومكانة لدى الخاصة والعامة، بحيث إن مكانتهم لا يمكن أن يتجاهلها أحد.

ولذلك لما طلب العز بن عبد السلام رحمه الله من المماليك أن يبيعوا أنفسهم، وقال لهم: أنتم أرقاء وعبيد، ولا يمكن أن تحكموا المسلمين وأنتم كذلك، ولابد أن تُباعوا ويُعلن عنكم في المزاد العلني، ثم إذا تم بيعكم فحينئذ لكم أن ترجعوا إلى مناصبكم. فحاولوا بكل وسيلة أن يثنوه عن هذا القرار، فأصر، فطلبوا منه أن يخرج من بلاد مصر، فخرج العز بن عبد السلام في موكب ليس فيه أبهة، وإنما جاء بحمار ووضع عليه رحله ووضع أثاثه في جانبي المزادة وركب هو وأركب زوجته وأطفاله، ومضى هذا الموكب البسيط المتواضع، فلما رآه الناس خرجوا كلهم وراءه، حتى أتى المماليك آتٍ فقال: خرج هؤلاء فمن تحكمون في بلاد مصر؟ فطلبوا منه أن يرجع وأن ينفذوا له ما طلب.

والمقصود أنه مما لا يختلف فيه أن هؤلاء العلماء لم يكونوا نكرات مجهولين في واقعهم، بل كانوا منذ نعومة أظفارهم وبداية طلبهم معروفين بالمشاركة في الحياة العامة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبخدمة الناس في أمورهم الدنيوية.

قال ابن رجب الحنبلي في «الطبقات»، وكذا قاله الذهبي في ترجمة الإمام ابن تيمية: إنه كان منتصباً لخدمة الناس ليلاً ونهاراً بلسانه وقلمه، حتى الظلم

الدنيوي كان يحاول أن يدفعه عن الناس [١].

ومن قرأ كتب شيخ الإسلام فسيجد كثيراً من الكتب كتبت في دفع المظالم عن الناس. فقد كان مختلطاً بالناس مؤثراً فيهم، ولذلك كان يملك هو وأمثاله أن يكون لهم مواقف مؤثرة وشجاعة.

إذاً: فطالب العلم يسعى أن يحقق من الاختلاط بالناس اختلاطاً واعياً مؤثراً، يجعله أهلاً لأن يكون قويّاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الوقت المناسب، إن أعانه الله تبارك وتعالى على ذلك.

○ ○ ○ ○

١. ينظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (ص:٣٤١)، والرد الوافر لابن ناصرالدمشقي (ص:٣٤-٣٥).

تعامل طالب العلم مع الواقع المعاصر:

والسؤال الذي يجب أن يطرح: ما هو الجانب المتعلق بواقعنا من هذا؟ وكيف نطبق هذه المواقف على الواقع الموجود اليوم؟

فأقول: يجب أن نعلم أن الأمة إذا أصيبت بالفشل فإنها تبتلى حينئذ بالتنازع والاختلاف والتلاوم، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٥٢)، فأتبع ذكر الفشل بذكر التنازع؛ لأنه أثر من آثاره، فإذا فشلت الأمة بدأ التنازع، ومن أسباب التنازع: الاختلاف بينهم في قدر المسؤولية، فكل إنسان يُلقي بالمسؤولية على غيره وهذا هو التلاوم.

ولو نظرنا في القرآن الكريم لوجدنا أن الله عز وجل ذكر التلاوم في سورة القلم في قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾، وانظر في القصة تجد مصداق ما ذُكر، فإن الله عز وجل قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ○ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ○ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ○ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ○ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ ○ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ○ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ○ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ○ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ○ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ○ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ○ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ○ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ○ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ○ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ (القلم:١٧-٣١).

المقصود أن أصحاب الجنة بعدما رأوا ما أصابها من الله عز وجل من احتراقها

وذهاب ثمرتها أقبل بعضهم على بعض يتلاومون. يعني: يلوم بعضهم بعضاً، فكل إنسان يلقي باللائمة والخطأ على الآخر.

ومما يستفاد من هذه الآيات: أن الأمة في حال فشلها وتنازعها تبدأ بالتلاوم، ولذلك إذا أتيت اليوم في هذا العصر إلى بعض العلماء المجاهدين المثابرين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعليم والإخلاص، فحدثته عن بعض الأخطاء والانحرافات، تجد أن هذا العالم يلوم نفسه، ويقول: نحن مقصرون، ويجب أن نفعل، وسنفعل. ويحث غيره.

أما إذا أتيت إلى بعض القاعدين أو المقصرين، وذكرت له ذلك فسيقول لك: الواجب هو على أهل العلم، والواجب هو على الطلاب، والواجب...، والواجب...، ويتبرأ من التبعة ويلقي بها على الآخرين.

هذا هو الواقع اليوم، فأنت إذا نظرت إلى موقف الأمة من علمائها، وموقف العلماء وطلاب العلم من الأمة، وجدت قدراً من تبادل اللوم.

فأما بالنسبة لطلاب العلم فكثير منهم يلقي باللائمة على العامة من الناس، ويقول: إنهم لا يلتفون حول علمائهم. وينتظر منهم دوراً يقومون به في ذلك.

ثم حين تنظر إلى العامة تجد الأمر نفسه موجوداً، فكثير من عامة الناس يتلذذون بنهش أعراض العلماء والوقوع فيهم، وأنهم لم يأمروا بمعروف ولا نهوا عن منكر، وأن فيهم وفيهم، فيحمّلون العلماء مسؤولياتٍ جساماً، وكأن الأمر منهم يبدأ وإليهم ينتهي، وكأن المتكلم من هؤلاء ليس عليه مسؤولية، هذا فضلاً على أنه لا يدري ما دور العلماء، وقد يكون من العلماء من يأمر

وينهى في الخفاء؛ لأن هذا أدعى للقبول، فتجد بعض عوام المسلمين يتكلمون في علمائهم بهذه الصورة، ومن هنا حصل التلاوم.

فالعالم أو طالب العلم ينتظر من الناس أن يكون لهم دور، والناس ينتظرون من العلماء أن يكون لهم كل الدور لا بعضه.

وهكذا تضيع الأمور بين هؤلاء وأولئك، والحل في نظري لمثل هذا يكون في ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: أن يكون لدينا جرأة في لوم النفس وتقريعها، وخير من أن نلقي باللائمة على غيرنا، نتجرأ على أن نتعرف على عيوب أنفسنا، وتكون لدينا شجاعة في نقد الذات.

ويعجبني في هذا المقام كلمةٌ قرأتها للشيخ محمد أمين المصري رحمه الله، في كتاب له اسمه «سبيل الدعوة الإسلامية» قال - بعدما تكلم عن التعليم في البلاد الإسلامية، وما وصل إليه- وهو يتكلم عن نفسه: لقد قضيت عمري بين قاعات المدرسة متعلماً ومعلماً، وإني وأيم الحق لأجد أيامي هزيلةً ونفسي رخيصةً لم ترتق عن مرحلة الطفولة، ولم تبلغ درجة الرشد، ولم تذق معاني الرجولة، ولو طلبت مني أن أكتب تقريراً بشأن نفسي لقلت:

١- إنه -يعني: نفسه- ليس براضٍ عن مستواه الإيماني، ولا يرى أن مثل هذا المستوى يمكن أن يحدث تأثيراً واضحاً في طلابه.

٢- ليس براضٍ عن عمله، ولا يؤديه وهو واثقٌ بأن السبيل التي يسلكها هي

السبيل التي تؤدي إلى نجاة الأمة، فلا المناهج ولا الطرائق ولا النظم التي يتخرج بها الطلاب بالتي تخرج للأمة رجالاً أبطالاً دعاةً، ولهذا فهو يعتبر نفسه أجيراً يعمل ما يرضي صاحب العمل في سبيل العيش... إلى آخر ما قال رحمه الله [١].

وما قاله رحمه الله فيه درجة من الشجاعة يعز نظيرها خاصة بين المفكرين وطلبة العلم، أن يتكلم إنسان أمام الملأ وفي كتاب أو صحيفة بمثل هذا الكلام الذي فيه إدانة لنفسه؛ وذلك لأن الشيخ رحمه الله كثيراً ما يقول: إن أسباب الفساد والنكوص عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي: أن كل فرد يلقي باللائمة على غيره، فضاعت المسؤولية بينهم، في حين أن المشكلة -أصلاً- فينا وفي أفرادنا، كما قال الشاعر:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالعَيبُ فِينَا

وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

فلابد أن يكون لدينا الشجاعة على نقد أنفسنا، والاعتراف بالخطأ، وهذه الخطوة لابد منها لتصحيح الخطأ؛ لأنه إذا كان الإنسان لا يعترف بخطئه فمن باب أولى أنه لن يصحح هذا الخطأ؛ لأنه صواب عنده، لكن إذا وصل إلى درجة أن يعترف بأنه مخطئ في الموقف الفلاني، ومقصر في المسألة الفلانية، فحينئذ يمكن أن يصحح.

على أن هذه القضية لها جانب عكسي موجود عند كثير من الطلاب اليوم،

---

١. سبيل الدعوة الإسلامية (ص: ١٥٤).

وهو أنه يبالغ في تقريع نفسه وتوبيخها بطريقة مفرطة يستغلها الشيطان في إقعاده عن أعمال الخير.

وأعرف كثيراً من الإخوة الطلاب والمشايخ يقصر في كثير من الأمور مع أنه مستعد لفعلها، لكن يقول: إنه ليس أهلاً لذلك، ويشدد على نفسه حتى يُحْرم الناس من خير كثير.

وهذا يصدق على ما قاله بعض السلف حين قال: «ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر»[1].

فقضية الاعتراف بالخطأ والقدرة على تقويم النفس ومعرفة عيوبها هي في الأصل مطلوبة ولابد منها، ولكن قد تتحول إلى مرض إذا زادت عن حدها، والشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده.

النقطة الثانية: التفاف المسلمين حول علمائهم المخلصين، بالأخذ عنهم والرجوع إليهم، وحفظ أقدارهم، بعيداً عن الغلو الذي تقع فيه بعض الطوائف والفرق، والذي يصل إلى تقديس الأشخاص، والمبالغة في التبعية لهم، فهذا أمر لا يقبله العلماء أنفسهم، ولكن فرق بين هذا وبين كون بعض المسلمين اليوم لا يحترمون علماءهم، فتجد شابّاً في مقتبل العمر ما طرّ شاربه، يقف أمام العالم، فيرد عليه مسألة من المسائل بعبارات ركيكة وألفاظ جافية.

إن المطلوب أن يُعرف للعلماء حقهم وقدرهم، وأن يلتف طلاب العلم والعامة

---

١. ينظر: إغاثة اللهفان (١/١١٦)، ومدارج السالكين (٢/١٠٨).

حول المشايخ والعلماء؛ حتى يمكن للعالم أن يأمر وينهى، ويكون له ثقل ومكانة، وبذلك يصبح كل واحد من المسلمين له مكانة ومنزلة، وله تأثير فضلاً عن العالم الذي يعتبر قائداً لهؤلاء.

إنك إذا أشعرت الناس بأنك توقر وتقدر علماءك، وقَّروهم وقدروهم أيضاً، وأصبح للعالم منطق ومكانة، وبإمكانه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر على كل مستوى، أما إذا كان أقرب الناس إلى العالم يتندرون في مجالسهم بنهش عرضه والنيل منه، وينسون ما قاله ابن عساكر رحمه الله حين كان يقول: «لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار متنقصيهم معلومة»[1].

فإذا كان هذا شأن أقرب الناس إليهم فما بالك بالأبعدين؟!

إن على كل واحد منا واجباً ينبغي أن يؤديه، وأن تنتقل المسألة من مجرد اللوم والتقريع وإلقاء التبعة على الآخرين من مسؤولين أو علماء أو غيرهم إلى أن يلقي كل إنسان باللوم أو التبعة على نفسه، ويسأل نفسه بجد: ما هو الشيء الذي يجب أن أؤديه؟ وما هو الدور الملقى عليّ؟ وهل قمت بذلك؟ ويبدأ بداية صحيحة في القيام بهذا الواجب.

قد ينتقد بعض الناس كثيراً من طلاب العلم والمشايخ في تقصيرهم في القيام بما أوجب الله عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن فلاناً بلغه كذا، أو اطّلع على كذا فلم يحرك ساكناً.

وهذا من التلاوم الذي اتفقنا على ضرورة القضاء عليه، وأن نبدأ بلوم أنفسنا،

---

١. تبيين كذب المفتري (ص:٢٩).

إذ إن هذا هو اللوم الذي ينفعنا، وإلا فقد نتلاوم أو نلوم أنفسنا في وقت لا ينفع فيه اللوم، كما في قوله تعالى حكاية عما يقوله الشيطان في يوم القيامة حين قال: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم ﴾ (إبراهيم:٢٢).

ففي ذلك الوقت لا ينفع اللوم، لكن الآن في الحياة ينفع لوم النفس، فكونك تلقي باللوم على فلان وعلان هذا من التخلص من التبعية.

كما أننا كثيراً ما نتلذذ بأن نلقي بأخطائنا على الاستعمار وأعداء الإسلام اليهود والنصارى، فإذا وجدنا ما يضج به المجتمع المسلم اليوم من المفاسد والمنكرات الظاهرة والباطنة، والبدع والانحرافات، والتفسخ والانحلال الخلقي والفكري، قلنا: هذا من كيد الاستعمار والصهيونية العالمية واليهود والنصارى وفلان وفلان. وهذا صحيح، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾ (البقرة:٢١٧). لكن لماذا نسينا أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ (آل عمران:١٢٠)؟ ولماذا نسينا قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران:١٦٥)؟

وكما يقول أهل الشام في المثل العامي: «دود الخل منه وفيه». فالدود في داخلنا وموجود فينا نحن، فعلينا ألاّ نلقي باللوم على غيرنا، وننسى الخطأ الذي ضَعَّف مقاومتنا واستعدادنا للتأثر بهذه الجراثيم، فالجسم القوي يمتلك المناعة ضد الأمراض، لكن الجسم الضعيف الذي فقد المناعة لديه قابلية لاحتضان الأمراض.

النقطة الثالثة: أن الله عز وجل خلق الخلق وقسم بينهم المواهب والملكات والأرزاق والقدرات، فقد ترى من طلاب العلم أو المشايخ مَنْ مَنَّ الله عز وجل عليهم بالعلم والفقه، لكن لا يلزم من ذلك أن يكونوا كَمَلَةً في كل شيء، وانظر إلى أصحاب النبي ﷺ، وهم الجيل المثالي الذي يجب أن نسير على خطاه في كل مجال، تجد منهم مَنْ مَنَّ الله عز وجل عليه بالعلم الغزير كعمر بن الخطاب، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم، وفي وصفهم نصوص عن السلف يهتز لها الإنسان طرباً، كما قال مسروق رحمه الله: «إني نظرت في أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ، منهم الإخاذة تروي الرجلين، ومنهم الإخاذة تروي الثلاثة، ومنهم الإخاذة تروي الفئام من الناس، ومنهم الإخاذة التي لو ورد عليها أهل الأرض كلهم لوسعتهم، وإن ابن مسعود من هؤلاء»[١].

وقال عمر رضي الله عنه عن ابن مسعود: «كنيف ملئ علماً»[٢]. يعني: زاوية أو ناحية ملئت علماً.

ومن الصحابة مَنْ مَنَّ الله عليهم بالزهد والورع والتعبد، كأبي ذر رضي الله عنه.

ومن الصحابة من هو مشهور بالجهاد والجلاد والقتال كخالد بن الوليد رضي الله عنه، والذي صح عنه أنه كان يقول: «ما ليلة تُهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب، أحب إليَّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية أصبّح فيها العدو»[١].

---

١. ينظر: الإحكام لابن حزم (٦/٢٣٠)، وإعلام الموقعين (١/١٦). والإخاذ: مجتمع الماء، شبيه بالغدير.

٢. ينظر: طبقات ابن سعد (٢/٣٤٤)، (٦/٩)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٢٢٣٦)، ومعجم الطبراني الكبير (٩٧٣٥)، وحلية الأولياء (١/١٢٩)، وتاريخ دمشق (٣٣/١٤٤).

ومن الصحابة رضي الله عنهم من جمعوا هذه الفضائل بحذافيرها، كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلو نظرت إلى شخصية أبي بكر -مثلاً- لوجدته جمع الفضل من أطرافه، وكذلك عمر رضي الله عنه، فإذا قرأت في ترجمته وجدته في العلم أعلم الصحابة، وفي السياسة أحذقهم، وفي الجهاد أشدهم وأقواهم، وهكذا هو أسبقهم إلى كل خير وفضيلة، لكن هؤلاء قليل.

فإذا كان هذا التفاوت من شأن الصحابة، فالأمر أيضاً بالنسبة لأهل الخير والعلم في هذا العصر، فكفى هؤلاء العلماء العاملين فخراً أنهم حين اشتغل أقرانهم بجمع الدنيا أو نيل الحطام أو الرئاسة اشتغلوا هم بتعلم العلم الشرعي وتعليمه ونشره بين الناس.

وإن من حكمة الله عز وجل -ولله الحكمة البالغة- أن يكون بعضهم منشغلاً بالعلم عن غيره؛ لأنه لو اشتغل بالأمر والنهي لقصر في جانب العلم والتخصص، فيمكن أن يتخصص إنسان في جانب معين فيفيد فيه ويصل إلى نتائج صحيحة، ويقوم غيره بفروض أخرى من الفروض التي أوجبها الله على الأمة، فهذه من الأعذار التي يجب أن نلتمسها لهؤلاء الأئمة، كما أن من الأعذار أن يكون هذا الشخص لا يستطيع فعل ما قصر فيه؛ لجبلّة فيه لا يستطيع عنها فكاكاً.

فليس من شروط العالم أن يكون قادراً على المواجهة، واحتمال الضغوط،

---

١. ينظر: الجهاد لابن المبارك (١٠٧)، ومصنف ابن أبي شيبة (١٩٤٢١)، ومكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (١٧٦)، ومسند أبي يعلى (٧١٨٥)، وتاريخ دمشق (٢٤٩/١٦).

ويشفع له عندنا انشغاله في طلب العلم وتعليم الناس وتبصيرهم وإحياء السنة بينهم، وإن كان فيه بعض الضعف الفطري، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

إذاً:

أولاً: يجب أن ننهي قضية اللوم، ونبدأ بلوم أنفسنا وإصلاح أحوالنا.

ثانياً: أن نعلم أن الكثير من هؤلاء العلماء يقومون بأدوار في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد لا يعلمها كثير من الناس، ويرون من المصلحة ألاَّ يذكروها.

ثالثاً: أن نتفهّم التنوع الفطري بين العلماء، وتفاوت القدرات والمواهب بينهم، وأنهم يتوزعون الأدوار بينهم، ولا يلزم أن كل واحد منهم يقوم بكل الأدوار.

• • • •



الباب / 5 مزالق في طريق الطلب

وهذا الباب فيه مباحث:

المبحث الأول/ تعلم العلم لذات العلم

من الناس من يقول: أَتَعَلَّم العلم لذات العلم. ويعني: أنه لا يطلبه للشهادة، أو للوظيفة، أو لدور يطمح في تأديته، وإنما يطلب العلم لذات العلم.

وهذا مزلق؛ فإن طلب العلم لذات العلم هو الآخر شهوة خفية في نفس الإنسان، وهو يعني: أن الإنسان لم يقصد بعلمه وجه الله تبارك وتعالى، وإنما قصد بتحصيل هذا العلم تحقيق اللذة التي يجدها المتعلم إذا حصل على العلم؛ فإن العلم له لذة، ومن الغرائز المركوزة في نفس الإنسان: غريزة حب الاستطلاع. ولذلك إذا وجد الإنسان معلومة بعد طول بحث عنها يفرح بها كما يفرح الأب حين يلقى ابنه، ويجد لذلك لذةً في قلبه تدعوه إلى الاستمرار في البحث.

ولكن الإسلام لم يأمرنا أن نطلب العلم لذات العلم، بل علمنا أن نطلب العلم للعمل، ولذلك كان السلف يقولون: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»[1]. وحين يذكر الله تعالى لنا شأن العلماء يصفهم بقوله جل وعلا: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ○ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ○ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (الإسراء:١٠٧-١٠٩)، فالعلم أورثهم الخشية، والبكاء، والخشوع، والخرور سجداً لله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر:٢٨)، ولذلك قال بعض أهل العلم: «إن العلماء هم خير البرية»، قيل له: كيف ذلك؟ قال: لأنه جل وعلا يقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾، فأثبت أن الخشية إنما هي للعالم الحقيقي.

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ○ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة:٧-٨)، فأثبت أن من خشي الله فهو خير البرية، والذي يخشى الله هو العالم الحقيقي.

إذاً: العلماء هم خير البرية، وكيف لا يكونون هم خير البرية وهم ورثة الأنبياء؟!

إذاً: فالعالم أفضل البشر بعد الأنبياء، إذا كان عالماً حقاً.

---

١. ينظر: اقتضاء العلم العمل للخطيب (٤٠، ٤١)، وتاريخ دمشق (٥٦/٦٦).

حقيقة العلم:

والعلم الحقيقي هو: الذي يقود إلى الله جل وعلا، وهو العلم بالله وشرعه ودينه، بل ولا يكفي العلم بهذه الأشياء علماً نظرياً، وإنما العلم الذي يلامس القلب، ويحرك المشاعر. ولذلك كان السلف رضوان الله عليهم لا يَعدُّون الذي جمع العلوم وأصبح يأخذ من كل فن بطرف عالماً، حتى يظهر أثر ذلك في خشوعه وسمته وزهده، وقد قال جماعة من السلف كلاماً مضمونه: «إن العالم هو الذي يخشى الله تعالى، ويخاف الله، ويظهر أثر ذلك في خلقه، وسلوكه، وعمله».

○ ○ ○ ○

المبحث الثاني/ مآخذ في التعامل

مآخذ في المعاملة مع الوالدين:

قد تجد طالب علم يجلس إلى العلماء، ويسمع منهم، لكن حين تأتي إلى سلوكه مع والديه، وفي داخل بيته تجد سلوكاً يتميز بالفظاظة والقسوة، وربما طلب منه أبوه أو أمه أن يلبي لهم الحاجة، فيضرب بطلبهم عرض الحائط ويقول: أنا مشغول!.. فإذا قيل له: مشغول بماذا؟! قال: بالقراءة، وبطلب العلم، وبالجلوس إلى العلماء، وبالأعمال الخيرية.

فنقول له: حسناً: أليس عمل الوالدين شغلاً؟! أليس الله جل وعلا قد أرشدنا إلى حسن معاملة الوالدين حتى ولو كانا مشركين؛ بل حتى حين يجاهدان الولد على الشرك؟! قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ (لقمان:١٥)، فما بالك إذا كان الوالد مسلماً فاسقاً مثلاً؟! ثم ما بالك إذا كان مسلماً ليس عليه فسق؟! فكيف يسوغ لابنٍ يطلب العلم، ويعد من الصالحين أن يعصي أبويه، أو يعاملهما بجفاء، أو يتركهما يبكيان ويذهب إلى حال سبيله؟!

أليس عجباً أن تجد آخرَ همٍّ يحمله الشاب هو إرضاء والديه؟! وتجد أنه يفرح بكل فتيا تقلل من هذه الشعيرة، فإذا سمع مثلاً أن الجهاد في هذا البلد أو ذاك.. فرض عين، ولا يشترط فيه إذن الوالدين فرح بهذه الفتيا، وربما ذهب إلى الجهاد، وترك أبويه يبكيان، ولماذا؟ لأن العالم الفلاني أفتى بأنه لا يشترط إذن الأبوين.

وحين يفتيه عالم آخر بأن طاعتهما واجبة، وإذنهما لازم فإنه يتجاوز هذه الفتوى، ويرمي هذا العالم بأنواع التهم؛ لأنه يجد ثقلاً وصعوبة في طاعة والديه وبرهما، والاستمرار على هذا الأمر، لكنه في الوقت نفسه يجد لذة في السفر، والذهاب والإياب، وما أشبه ذلك.

وإذا خرج عن إطار البيت والأبوين؛ فإنه يكون إنساناً وديعاً لطيفاً، حسن الخلق، جيد المعاملة، سريع الابتسامة، أريحي النفس، مرحاً، خفيف الظل، خدوماً مع إخوانه وزملائه، فإذا دخل المنزل خلع هذه الشخصية تماماً، ولبس شخصية أخرى، شخصية إنسان مستأسد، فظٍ، غليظٍ، ينتظر من الجميع أن يطيعوه ويخدموه، ويلتزموا رأيه وكلامه.

وإذا بحثت عن دوره في الإصلاح داخل البيت، وهل له جهود في الإصلاح بنشر العلم الشرعي، والتحذير من المفاسد، بالشريط، وبالكتاب، وبالمجلة المفيدة؟ فلن تجد من ذلك شيئاً؛ لأن هذا الابن قد خسر أهل البيت بسوء معاملته، وأصبحت الجسور بينه وبينهم مقطوعة، وبالتالي أصبح لا يستطيع أن يؤثر فيهم.

وقد يتعلل هذا الشاب -أحياناً- بأن يقول لك: يا أخي! أبو عبيدة بن الجراح قتل أباه، وأبو بكر فعل، وعمر فعل، ويبدأ بسرد قصص بعض الصحابة الذين حاربوا أقاربهم في ذات الله جل وعلا، ويغيب عنه أن يسأل نفسه: هل هؤلاء الأقارب الذين يحاربهم كفار؟ كلا، بل هم مسلمون، وقد يكونون مسلمين عصاة، وقد يكونون غير عصاة، لكن سوء التربية أحياناً وغلبة الشدة وشرة

الشباب تجعل الإنسان مقصراً في حق أهل بيته، وبالتالي: يتخذون منه موقفاً سيئاً، وهذا الموقف قد يجعله يزيد ويغلو في سوء الظن بهم، وهذا مزلق خطير.

مآخذ في التقصير في دعوة الزملاء والجيران:

فإذا تركت الشاب وبيته، وذهبت إلى الشاب وزملائه، وجدت هذا الشاب نكرة بين زملائه، ليس له تأثير في المدرسة إن كان طالباً، ولا في الوظيفة إن كان موظفاً، ولا في الحي الذي يسكنه مع جيرانه، فليس له تأثير عليهم، مع أنك تجد هذا الشاب بين أقرانه من طلاب العلم ومن الشباب الصالحين شعلة من النشاط، لكنه لم يضع في اعتباره أن يقوم بواجب الدعوة، وأن همّ الدعوة يجب أن يكون ملازماً له حيث يحل ويرتحل: في البيت أو في المدرسة أو في السوق أو في الحي، أو في أي مكان..

وهكذا نفتقد أخلاق العالم وطالب العلم في هذا الشاب، أخلاقه في معاملة الأقربين والأبعدين، وأخلاقه في الدعوة إلى الإصلاح، وأخلاقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ونحن نعلم في الحديث الذي في الصحيحين، أن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام! سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»[1].

---

١. صحيح البخاري (٥٣٧٦)، وصحيح مسلم (٢٠٢٢).

فالنبي ﷺ -وهو على مائدة الطعام- كان موجهاً ومربياً؛ فوجه هذا الغلام، ولقنه هذا الدرس.

وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان والعلماء يستغلون كل فرصة في إيصال الخير إلى الناس، ودعوتهم إلى الله جل وعلا، وفي أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، ويتسللون إلى قلوبهم عن طريق الخلق الحسن، والمعاملة الفاضلة، والبسمة التي يستقبلونهم بها، ويحسنون إليهم حتى يملكوا قلوبهم، فإذا ملكوا قلوبهم وجّهوهم، وكما قيل:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ
فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ

ونحن لا نريد استعباد قلوب الناس، فلا ينبغي أن تكون قلوب الناس مستعبدة لغير الله جل وعلا، لكن نريد من الداعية وطالب العلم أن يعرف الطريق إلى قلوب الناس: بالأخلاق الفاضلة، بالإحسان إليهم، بالهشاشة والبشاشة، وحسن المعاملة، حتى يستطيع أن ينشر بينهم الخير الذي يحمله، والعلم الذي تلقاه، فإن لهذا العلم زكاة، إذا لم يدفعها الإنسان محقت بركة هذا العلم الذي حصله.

مآخذ في المعاملة مع الزوجة:

أقرب الناس إلى الإنسان بعد والديه زوجته، ومع ذلك فربما وجدتَ زوجة طالب علم تشتكي من أنه لم ينفعها بهذا العلم، ولم يعلمها، وقد تكون زوجة

طالب العلم -أحياناً- جاهلة بأمور الدين، وقد ترتكب بعض الأخطاء، ومع ذلك لا يجد متسعاً لتعليمها أو توجيهها.

وليس له مع زوجته أسلوبٌ في المعاملة إلا استخدام السلطة؛ باعتبار أنه قيّم عليها، فيأمرها وينهاها، وقد يزجرها ويهجرها، وقد يسيء إليها، ويرى أن هذا هو أسلوب التأديب، لكن هل يجلس مع زوجته فيؤانسها ويسعدها ويتصدق عليها بالكلمة الطيبة والمعاملة الطيبة؟! وهل يعلمها ويقرأ عليها، ويخبرها بما أنزل الله على رسوله، فَيَلِينُ قلبُها، ويرق بالذكر والوعظ؟! وهل يعلمها الأحكام والحلال والحرام؟! وهل يحسن معاملتها؟!

نقول ومع الأسف: إن هذا قليل عند الكثيرين، وقد قال النبي ﷺ: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»[1].

نعم ليسوا هم بالخيار، وكيف يكونون هم الخيار والرسول ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[2]؟!

وكيف يتصور من طالب العلم أن يكون عسلاً مع زملائه وأصدقائه، ثم يكون المر والعلقم مع والديه وأخواته وإخوته وزوجته؟!

إن هذا تناقض لا يسوغ ولا يجوز!!

○ ○ ○ ○

١. أخرجه عبد الرزاق (١٧٩٤٥)، والدارمي (٢٢١٩)، وأبو داود (٢١٤٦)، وابن ماجه (١٩٨٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٩١٦٧)، وابن حبان (٤١٨٩).

٢. أخرجه الدارمي (٢٢٦٠)، والترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وابن حبان (٤١٧٧).

المبحث الثالث/ الانشغال بفروع العلم قبل أصوله

وذلك أنك تجد بعض طلاب العلم ينشغلون بفروع العلم قبل أصوله، وبصغاره قبل كباره؛ من باب حب المشاركة في النقاش والأخذ والعطاء، فيكون لطلبة العلم مسائل معروفة تملأ أوقاتهم في النقاش، وهي مسائل محدودة قد لا تزيد على عشر مسائل أو عشرين مسألة، فتجد النقاش غالباً يدور حولها.

أمثلة على بعض المسائل التي يكثر النقاش فيها بين طلاب العلم:

المثال الأول: وضع اليدين بعد الركوع: هل يكون فوق الصدر أو ترسلان؟

المثال الثاني: جلسة الاستراحة، أتفعل أم لا تفعل؟

المثال الثالث: تحريك الإصبع في التشهد، أيحرك أم لا يحرك؟ وكيف يحرك؟ وهل يحرك -مثلاً- بين السجدتين أو لا يحرك؟ وكيف توضع اليد؟

وما أشبه ذلك من المسائل، وهي مسائل معدودة محدودة تأخذ أوقات الطلاب في النقاش والحديث.

في حين تجد قضايا العقيدة الأساسية وقضايا الفقه الكلية ومقاصد الشريعة وجوامع الأصول بمعزل عن هؤلاء، فلا يقرؤونها، ولا يتذاكرون فيها؛ لأنها ليست من حديث المجالس، ولا مجالاً للمباحثة مع الأقران، ولا مظهراً للتميز عن الآخرين.

وهذا لا يعني أن نقول ما يقوله بعض الناس عن مثل هذه المسائل بأنها قشور، وأنه لا ينبغي الاشتغال بها، فهذا -لا شك- خطأ؛ لأننا نعتقد أن الدين ليس فيه قشور؛ ولأن العادة أن القشور تُلقى ولا يُنتفع بها، والدين كله لب

بلا قشور، ولكن التدرج في التعلم والبدء بالأصول الجامعة والمسائل الكبرى هو المنهجية الصحيحة لطالب العلم. ومن المهم معرفة أن الفروع مما يقع فيها الاختلاف والاختيار بين أهل العلم.

ولذلك فإنك لو سألت بعض طلبة العلم عن أبواب من العقيدة لوجدت أن معلوماته في ذلك مشوشة أو ناقصة، ولو سألته عن القواعد الكلية والضوابط للأحكام الشرعية لوجدت عنده إخلالاً بها، ولو سألته عن الضوابط والقضايا العامة مثل الأخلاقيات العامة في الإسلام والأصول لوجدت عنده تقصيراً في ذلك، لكن تجد عنده إلماماً واهتماماً ببعض المسائل الجزئية، وانشغالاً بهذه المسائل عن غيرها.

وهذا يدل على فقدان الحكمة؛ لأن الحكمة هي: وضع الأمور في مواضعها، فليس من الحكمة -مثلاً- أن ينشغل الإنسان بتقرير سُنّةٍ من السنن عن تقرير العقيدة، وليس من الحكمة أن يجعل الإنسان المعركة مع الناس حول قضية جزئية ويغفل عن القضية الكلية الأساسية، وليس من الحكمة أن يقضي الإنسان وقته كله في تعليم الناس سُنّة واحدة ويغفل عن الانحراف الأخلاقي الذي يكتسح مجتمعات المسلمين اليوم.

فكل إنسان يدرك أن المجتمعات الإسلامية تتعرض لحرب لا تستهدف فروع الإسلام أو السنن فحسب، ولكنها حرب تستهدف أصول العقيدة الإسلامية، ونحن نجد أن كثيراً من المجتمعات الإسلامية بُليَت برجال يحملون أفكاراً منحرفة يحاربون بها أصل العقيدة، ويشككون فيها. كما

بُلِيَت بأناس لا خلاق لهم، همهم الشهوة، وتحويل مجتمعات المسلمين إلى مجتمعات رذيلة، وانحلال، وفساد.

وقد نجح هؤلاء وأولئك في تحقيق بعض مآربهم داخل المجتمعات الإسلامية، فليس من الحكمة في شيء أن يغفل طالب العلم عن هذه الأمور، ويشتغل بتقرير الخلاف حول سنة من السنن، ويجعل ذلك قضيته في مباحثاته ودروسه ومذاكرته مع أقرانه.

إن هذه القضايا لابد أن تأخذ حجمها الحقيقي، فتبحث كما يبحث غيرها من المسائل في موضعها وسياقها من أبواب العلم، لا أن تفرد وتظهر وتجعل قضية يدور حولها الجدل ويكثر الأخذ والرد.

إن علينا ألا نفرِّط في شيء من السنن، بل ينبغي أن نُعَلِّم الناس هديَ نبيهم ﷺ وسنته فيما دق وجل من أمورهم، ولكن الناس يختلفون، فالمستقيم المصلي الذي يحتاج إلى معرفة السنن والفضائل والمستحبات يُعلَّم السنن، وتبينَّ له؛ لأنه متلهف إلى معرفتها، وعلمه بالدين لا يصح أن يقف عند حد المعرفة بالواجبات، بل ينبغي عليه أن ينتقل بعد ذلك إلى معرفة السنن والفضائل والمستحبات والعمل بها، لكن هذا لا يجوز أن يلهينا عن محاولة دعوة الضالين والمنحرفين ومرضى الشبهات والشهوات، ودعوتهم إلى أصل الالتزام بالإسلام، ومحاولة إخراجهم مما هم فيه من شبهة أو شهوة إلى نور العلم، واليقين، والعقل، والإيمان.

ولا ينبغي أن نغفل عن هؤلاء، بل هم - عند التعارض- أَولى، وينبغي أن

نبذل جهدنا معهم؛ لأن ذلك الإنسان المصلي الذي بقيت عليه سُنَّة، لو مات وهو لم يعمل بها، فإنه-إن شاء الله- إلى خير. أما ذلك الإنسان الواقع في شهوة موبقة أو شبهة مضلة فإنه على خطر عظيم، فإنقاذه أولى إذا تعارضت وتزاحمت هذه الواجبات، أما إذا أمكن أن نقوم بهذا الواجب وذاك، فهذا نور على نور.

○ ○ ○ ○

المبحث الرابع / الظاهرية في التعامل مع النصوص

وذلك أن التعامل مع النصوص الشرعية من القرآن والسنة يحتاج إلى عقل، وفقه، وممارسة، ودراية بقواعد الشريعة ومقاصدها، وخبرة باللغة العربية ومناحي القول فيها. وبعض طلاب العلم الذين لم يُؤتوا حظّاً من ذلك، ولم يحصلوا على ما يسميه الأصوليون (فقه النفس) -وهو تدرب النفس في مجال الظنون، ومآخذ الأحكام الشرعية- قد يأخذ الواحد منهم نصّاً شرعيّاً واحداً ويقف عنده، ويستنبط منه أحكاماً كثيرة، ويتمسك بهذه الأحكام ويشدد فيها، وقد يرمي من خالفوه بمختلف الألقاب.

أمثلة على الفهم الظاهري للنصوص:

المثال الأول: وهو يتعلق بالعقيدة، فحين يسمع بعض الناس قول الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[١].

فربما وقعوا في زيغ وضلال بسبب ظاهريتهم في التعامل مع هذا النص، وكونهم أخذوا هذا النص وأهملوا غيره، حتى أنه وُجِد من يقول: إن هذا الكفر المقصود في الحديث: هو كفر الاعتقاد، وإن من وقع في الكذب أو إخلاف الوعد أو الفجور في الخصومة أو الغدر في العهد فإنه يكفر بذلك كفراً مخرجاً من الملة.

١. صحيح البخاري (٣٤)، وصحيح مسلم (٥٨).

وبذلك أهدر هذا الإنسان -الذي فهم هذا الفهم الخاطئ لهذا الحديث- مئات النصوص من الكتاب والسنة التي تدل على أن أصحاب المعاصي لا يكفرون. وهذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة، كما قررها العلماء، ومنهم الطحاوي رحمه الله الذي يقول في عقيدته: «وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين، بعد أن لقوا الله تعالى عارفين»[١].

وعلى هذا إجماع أهل السنة؛ فأهل الكبائر لا يكفرون لمجرد فعل كبيرة. وهذا الفهم هو بسبب ظاهرية هذا الإنسان في التعامل مع نص من النصوص وإغفاله للنصوص الأخرى الواردة في الباب.

المثال الثاني: حين يسمع إنسان قول الرسول ﷺ: «لا وضوء إلا من صوت أو ريح»[٢].

فحَسب النظرة الظاهرية لهذا اللفظ قد يتصور الشاب أن الوضوء إنما يكون من الصوت أو الريح فقط، ولكن هل ظاهر هذا النص مقصود؟! لاشك أن الجواب: لا. فالإنسان يتوضأ من البول، والغائط، والمذي، والنوم، ونحو ذلك، لكن لو أن إنساناً وقف عند هذا النص فقط فربما يقع في مثل هذا الضلال.

ولذلك فإن أهل العلم كانوا يشيرون إلى أنه لابد من جمع الأحاديث الواردة في المسألة، حتى إن الإمام أحمد كان يقول: «لو لم نجمع الحديث الواحد

---

١. شرح العقيدة الطحاوية (٢/٥٦١-٥٦٥).

٢. أخرجه الطيالسي (٢٥٤٤)، وأحمد (٩٧١٢)، والترمذي (٧٤)، وابن ماجه (٥١٥)، وابن خزيمة (٢٧).

من سبعين طريقاً ما عقلناه». يعني: أنه كان يجمع الحديث الواحد من طرق كثيرة، أو يجمع الأحاديث المتعددة الواردة في المسألة؛ حتى يفهم المسألة فهماً صحيحاً على ضوء ذلك الحديث.

المثال الثالث: حين نقف عند قول الرسول ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم، الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه»[١].

نرى أن بعض الظاهرية قالوا: لو أن إنساناً بال في إناء ثم صبه في هذا الماء ما كان عليه من بأس؛ لأن المحظور هو أن يبول في الماء مباشرة. بل قال بعضهم: لو تغوط أحد في هذا الماء فلا بأس، المهم ألا يبول فيه[٢].

وهذا جمود شديد على النص. فمقصود النبي ﷺ واضح في هذه الأحاديث، ولا ينبغي الغفلة عن هذا المقصود.

أمثلة على التعجل في استنباط الأحكام:

وهذه الأمثلة يلاحظ أن فيها اختلافاً، لكنني لا أقصد أن أقرر حكماً فقهيّاً، إنما أقصد أن أؤكد على أهمية التأني في التعامل مع النصوص الشرعية:

المثال الأول: ورد عن الرسول ﷺ نصوص كثيرة جدّاً أنه قال: «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله تعالى عليه»[٣].

ففَهِمَ منه بعض العلماء أن من لم يُسمِّ على الوضوء فلا وضوء له، ويجب عليه أن يعيد الوضوء، وهذه رواية عن الإمام أحمد وهو مذهب إسحاق بن

١. أخرجه البخاري (٢٣٩)، ومسلم (٢٨٢).
٢. ينظر: المحلى (١/١٣٥-١٣٦)، والمجموع (١/١١٧).
٣. أخرجه أحمد (٩٠٥٠)، وأبو داود (١٠١)، وابن ماجه (٣٩٩).

راهويه، وجماعة من أهل الحديث.

وهذا مذهب لا أريد أن أقلل من قيمته، ولكن أريد أن أذكر الرأي الآخر وما يدعمه، فجمهور العلماء - بما في ذلك الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي رحمهم الله، ورواية عن الإمام أحمد أيضاً، واختارها جملة من العلماء المحققين كابن تيمية، وجماعة من علمائنا المعاصرين- يرون أن التسمية على الوضوء سنة، وليست بواجبة.

فهل ترى هؤلاء العلماء ضربوا بهذا الحديث عرض الحائط، كما قد يظن بعض المتعجلين؟ كلا، ولكن منهم من لم يصحح هذا الحديث أصلاً، ومنهم من صحح هذا الحديث، لكن قال: إن قوله ﷺ: «ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه». لنفي الكمال لا الصحة. أي: لا وضوء كامل، لوجود قرائن عديدة دلت على ذلك، منها:

أولاً: أن أبا داود روى في «سننه» بسند حسن، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف الطهور؟ فدعا بماء في إناء، فغسل كفيه ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل ذراعيه ثلاثاً، ثم مسح برأسه، فأدخل إصبعيه السباحتين -أي: السبابتين- في أذنيه، ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه، وبالسباحتين باطن أذنيه، ثم غسل رجليه ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال ﷺ: «هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء، وظلم، أو ظلم وأساء»[1].

---

١. سنن أبي داود (١٣٥).

فقالوا: هذا الأعرابي كان لا يعرف الوضوء، ويقول: كيف الوضوء؟ ومع ذلك لم يعلمه النبي ﷺ التسمية، ولو كانت واجبة لعلمه إياها.

ثانياً: أن الذين نقلوا الوضوء عن النبي ﷺ -وعددهم اثنان وعشرون صحابيّاً- لم ينقل واحد منهم أن النبي ﷺ سمّى على الوضوء.

ثالثاً: أن الوضوء يدخل في الغسل؛ فإذا نوى الإنسان رفع الحدث الأكبر والأصغر بالغسل أجزأه عن الوضوء، ولم ينقل الأمر بالتسمية قبل الغسل، لا قولاً ولا فعلاً، وإن كانت التسمية على الغسل مسنونة باعتبار أن الوضوء يدخل فيه.

رابعاً: أن التسمية لم تذكر في آية الوضوء في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ (المائدة:٦).

وهكذا ندرك أن رأي الجمهور في المسألة ليس مبنيّاً على إعراض عن النص -كما يتصور بعض المتسرعين- بل هو مبني على أصول، وعلى نظرة أعمق في النص نفسه، وفي غيره من النصوص، والقرائن الأخرى.

المثال الثاني: قول النبي ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يغمس يده في الإناء، حتى يغسلها ثلاثاً، فإنه لا يدري أين باتت يده»[١].

أخذ بعض أهل العلم من نص الحديث أن الإنسان يجب عليه إذا استيقظ من نوم الليل أن يغسل يده قبل أن يدخلها في الإناء، وأنه يحرم عليه أن يغمس

١. أخرجه البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨).

يده في الإناء قبل غسلها، إذا كان مستيقظاً من نوم الليل.

وهذا مذهب جماعة من السلف، وهو رواية في مذهب الإمام أحمد، واختاره بعض علمائنا المعاصرين.

ولكن مذهب الجمهور - أبي حنيفة، والشافعي، ومالك، وهو رواية عن الإمام أحمد، واختارها جمع من أئمة الدعوة في هذا العصر- أن هذا على الاستحباب، لا على الوجوب. فيستحب للإنسان أن يغسل يديه إذا استيقظ من نومه قبل أن يغمس يده في الإناء، لكن لا يجب عليه ذلك.

فهل ترى هؤلاء -وهم الجمهور- ضربوا بهذا الحديث عرض الحائط، أو كانوا متهاونين في أمر النبي ﷺ، كما يتصور بعض المتسرعين؟! كلا، لكنهم أخذوا بقرائن قوية، استنبطوا منها أن الأمر للاستحباب لا للوجوب، ومن هذه القرائن:

أولاً: التعليل في قوله ﷺ: «فإنه لا يدري أين باتت يده» فإن الإنسان إذا لم يجزم بوجود النجاسة في بدنه لا يجب عليه الغَسل، وإنما يكون الغسل إذا تيقن النجاسة، أما لو شك الإنسان في النجاسة فلا يجب عليه الغسل؛ لأن الأصل هو عدم النجاسة، فالتعليل في قوله ﷺ: «فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده». مشعر بأن الأمر على الاستحباب لا على الوجوب.

ثانياً: قوله ﷺ: «ثلاثاً» يدل على عدم الوجوب، فإن الأصل في إزالة النجاسة أنه يكفي غسلها مرة واحدة، إذا زالت بمرة واحدة.

ثالثاً: قوله ﷺ في الحديث الآخر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا

استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاث مرات -يعني: يستنشق، ثم يخرج الماء من أنفه ثلاثاً- فإن الشيطان يبيت على خياشيمه»[١].

وقد أجمع أهل العلم -كما قال عدد من العلماء- على أنه لا يجب عليه الاستنثار، إلا ابن حزم، حيث ذهب إلى وجوب الاستنثار، وهو مذهب مرجوح.

فهذه القرائن جعلتهم يقولون: غسل اليدين عقب الاستيقاظ من نوم الليل مستحب وليس بواجب.

وأنا حين أضرب هذه الأمثلة لا أريد أن أقرر فيها رأياً فقهيّاً، فإن قال قائل: إن التسمية على الوضوء واجبة. وإن غسل اليدين بعد الاستيقاظ من نوم الليل واجب. فلا بأس بذلك، فليس المقصود الآن هو تقرير أن هذا واجب أو مستحب، وإنما المقصود أن نعلم أن التعامل مع النصوص يحتاج إلى فقه، وإلى معرفة القرائن، وإلى جمع النصوص العديدة في المسألة، وإلى الاطلاع على كلام أهل العلم في المسألة الواحدة؛ حتى يكون أخذك بهذا القول أو ذاك مبنيّاً على دراسة وتمحيص، وليس على تمسك بظاهر النص دون تعمق، فإذا اخترت بعد الدراسة أحد الرأيين، فليس عليك في ذلك حرج، فلك سلف من أئمة هذه الأمة وعلمائها.

وقفة مع الظاهرية:

أريد أن أشير - بمناسبة الحديث عن الظاهرية- إلى أن الإمام ابن حزم الظاهري إمام جليل، وله كتب من أهمها وأشهرها: كتاب «المحلى» في الفقه؛ وهو كتاب

١. أخرجه البخاري (٣٢٩٥)، ومسلم (٢٣٨).

عظيم القدر، وفيه فقه كبير، ولكن فيه سقطات وزلات، لا يخلو منها كتاب.
فبعض طلاب العلم يقرأ «المحلى»، فيصبح أسيراً لابن حزم؛ لأن ابن حزم كان يملك أسلوباً قويّاً، ويحاصر خصومه بالقياسات، وإثبات أنهم متناقضون في أقوالهم. فيقع طالب العلم أحياناً تحت تأثير أسلوب ابن حزم وقوته، فيصبح يفتي بمذهب ابن حزم في كل شيء، فيما وافق فيه جمهور العلماء، وفيما خالفهم، وفيما شذّ فيه، وهذا خطأ، بل إنني أرى لطالب العلم المبتدئ ألا يبدأ بقراءة كتاب ابن حزم، وإنما يقرأ غيره من الكتب التي فيها مقارنة واعتدال، وليس فيها شدة على الخصوم، حتى يتعود الطالب سعة الصدر، وسعة الأفق، وهدوء النقاش، ككتب ابن عبد البر وابن المنذر وابن قدامة وابن تيمية ونحوهم، ثم يقرأ ما شاء بعد ذلك من الكتب العلمية الموثوقة.

○ ○ ○ ○

المبحث الخامس/ الولع بالغرائب

الغرائب -أحياناً- تشد الإنسان؛ فالإنسان حين يسمع أمراً عاديّاً فإنه لا يلفت نظره، لكن حين يسمع أمراً غريباً يقف عنده.

ولنأخذ مثالاً: أن أحدنا قد يمشي في الشارع ويجد أعداداً هائلة من السيارات تمشي فلا تلفت نظره، لكن حين يرى سيارة غريبة أو حادثاً غريباً، تجد الناس يقفون لينظروا إلى هذا الأمر الغريب، أو هذا الحادث المفاجئ، ويتحلقون حوله.

كذلك الحال بالنسبة إلى القضايا العلمية، فكثير من طلاب العلم حظهم من العلم الغرائب، والقضايا التي يكثر فيها الاشتباك؛ فتجد طالب العلم يتقن بعض القضايا التي يختلف حولها العلماء، ففلان قال كذا، وفلان قال كذا، أمّا القضايا التي اتفقوا عليها، أو أجمعوا عليها فلا يعرفها أو لا يعرف أكثرها.

كذلك تجده مشغولاً ومنهوماً بتتبع الغرائب، فإذا وجد قولاً غريباً أو رأياً شاذّاً تمسك به، وأحياناً يكون الدافع إلى ذلك شهوة خفية في القلب، تتمثل في حب التميز عن الناس.

ولذلك أقول: إن رأي الجمهور -غالباً- أصوب. وليست هذه قاعدة مطلقة، ولكني أقول: غالباً؛ وذلك أن العلماء إذا قالوا بقول، ثم خالفهم واحد، أو اثنان، أو ثلاثة من العلماء، فهل يعني أن هذا الجم الغفير من العلماء لا عبرة بقولهم ورأيهم؟! نقول: لا. بل الغالب أن رأي الجماهير أقرب إلى

الصواب، ولا يمنع أن يكون الصواب مع غيره في مسائل أخرى، ولذلك ينبغي على الإنسان ألا يتسرع في تبني بعض الأقوال الشاذة، أو التي فيها مخالفة وغرابة.

أمثلة على تبني بعض طلبة العلم لبعض المسائل الغريبة:

مثال ذلك: أن يسمع طالب العلم أن من العلماء من يحرِّم الذهب المحلَّق على النساء، أو يوجب التمتع في الحج، أو يقول: إن الإنسان إذا رمى جمرة العقبة ليلة العيد حل التحلل الأول، فإذا أمسى ذلك اليوم وغربت عليه الشمس ولم يطف فإنه يعود محرماً، كهيئته قبل أن يرمي.

وهذه المسائل لو نظرت إلى عدد الذين قالوا بها من فجر التاريخ إلى اليوم لوجدتهم يعدون على أصابع اليد الواحدة، وقد لا يثبت عنهم هذا القول، فما هو السر الذي يجعل الطالب يتشبث بهذه الأقوال، ويتمسك بها، ويدافع عنها، ويتعصب لها؟

أحياناً قد يكون اتباع الدليل بغير فقه، أو سعة علم من باب الولع بالغرائب الذي يوجد عند الإنسان، فينبغي على الإنسان أن يستوحش من مخالفة الجماهير، إلا فيما كانت الأدلة فيه صريحة وصحيحة.

○ ○ ○ ○

المبحث السادس / التعصب لآراء عالم معين

وهذا -غالباً- يكون للطالب مع شيخه؛ فإن الطالب إذا تلقى العلم عن شيخه مباشرة، أو عن طريق الكتب أصبح عنده تعصب لهذا الشيخ ولأقواله وآرائه؛ فإن كان العالم محدثاً تعصب لأحكامه على الأحاديث، وإن كان العالم فقيهاً تعصب لأقواله الفقهية، وأصبح ينصرها ويدافع عنها، وينشرها ويتبناها، ويهاجم مخالفيها.

والتعصب داء قديم، ولا يقع فيه إلا الجهال. أما العلماء المحققون فهم ينهون عن التعصب ويحذرون منه، ولذلك تجد الإنسان الذي عنده أصالة وتميز لا يتأثر بهذا التعصب، بل إنه يعتبر من الوفاء لشيخه وأستاذه - الذي يجلُّه ويقدره- أن يخالفه في المسائل التي رأى أن الدليل فيها مع غيره.

كما أن على طالب العلم ألا يقصر نفسه على شيخ واحد لا يأخذ إلا عنه، ولا يتلقى إلا منه؛ بحيث ينظر إلى الدنيا كلها من خلال هذا الشيخ، فإن هذا من أسباب وجود التعصب، وكونك تعرف ما عند فلان وما عند فلان مطلوب، فلكل شيخ طريقته وتميزه، والموفق من الطلبة من يجتني من مشايخه أفضل ما عندهم، من غير تبعية ولا تعصب لواحد بعينه.

والغريب أن من طلاب العلم من يرضى التعصب للأحياء، ولا يرضى التعصب للأموات، فهو يلمز بعض الناس بأنه حنبلي، أو حنفي متعصب، ولكنه هو متعصب لفلان أو فلان من الأحياء، وهؤلاء وإن كانوا علماء أجلاء، فنقول: إذا كان ولابد من التقليد، وإذا كان ولابد من التعصب،

فالتعصب للميت أولى من التعصب للحي؛ لأن الميت عالم جليل قد يكون ممن أجمعت الأمة على فضله؛ كالأئمة الأربعة الذين اتفقت الأمة على جلالتهم وفضلهم، وسلمت لهم أمورها في الجملة، أما الحي فلا تؤمن عليه الفتنة.

نقول ذلك تنزلاً، وإن كنا لا نقر التعصب ولا التقليد لحيّ ولا لميّت، بل ينبغي على الإنسان أن يحرص على أن يكون اتباعه للكتاب والسنة وللعلماء العاملين بهما بمعنى: أن يأخذ منهم الحكم بدليله.

فائدة دراسة الفقه المقارن:

ولعل من المناسب أن يتربّى طالب العلم على ما يسمى بـ«الفقه المقارن»، خاصة إذا ترقَّى في العلم؛ وذلك لأنه سيرى في المسألة أقوالاً عديدة، هذا قول للشافعي، وهذا لمالك، وهذا لأبي حنيفة، أو أحمد، أو الأوزاعي، أو الطبري، أو سفيان الثوري، ثم يجتهد في تحقيق الراجح منها، بالنظر في أدلة كل قول، ثم يختار من هذه الأقوال ما يعضده الدليل. ومن هنا يدرك أن المسألة ليست إجماعاً، وهذا النظر في الأقوال بأدلتها يربي الطالب على أنْ يتعصب للحق وحده، ولا يتعصب للرجال أيّاً كانوا، بل هؤلاء الرجال أنفسهم كانوا ينهون عن تقليدهم، ويعلنون أنه إذا صح الحديث فهو مذهب أحدهم، فالإمام أحمد- مثلاً- يقول: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ثم يذهبون إلى رأي سفيان -يعني: سفيان الثوري- والله عز وجل يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ

يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور:٦٣)[١].

ففرق بين تعظيم العلماء وتقديرهم وإجلالهم والدعاء لهم، وبين تقليدهم في كل مسألة. فإن من المعلوم أنه لا يمكن أن يقال: إن الحق كله محصور في قول إمام من الأئمة إلا رسول الله ﷺ، فإن ما قاله ﷺ هو الحق، أما سائر الأئمة فيؤخذ من قوله ويترك، كما قال الإمام مالك رحمه الله وغيره[٢].

فإذا تربَّى الإنسان على ذلك سَلِم من نزعة التعصب، سواء للإمام المتبوع أو للشيخ، أو للنفس، فإن التعصب للنفس معضلة أخرى؛ لأنه ينشأ عن بحث المسألة تعصب لرأي ما. فهو بعد جمع الأقوال والأدلة والتحقيق والتنقيح قد يتعصب للقول الذي انتهى إليه، ولكن الإنسان الذي تدرب على قراءة أقوال العلماء يسلم من هذا إن شاء الله، ولهذا كان علماء السلف يوصون بالاطلاع على أقوال العلماء، حتى إن بعضهم كان يقول: «من لم يعرف اختلاف الفقهاء فليس بفقيه»[٣].

○ ○ ○ ○

---

١. ينظر: تيسير العزيز الحميد (ص:٤٦١).

٢. ينظر: جامع بيان العلم وفضله (١٧٦١-١٧٦٥)، والمقاصد الحسنة (ص:١٧١)، وكشف الخفاء (٢/٩٥٦).

٣. ينظر: جامع بيان العلم وفضله (١٥٢٠، ١٥٢٣، ١٥٢٤)، والموافقات (٤/١٦١).

المبحث السابع / الإغراب في تطبيق السنن

وهنا عدة ملحوظات:

الملحوظة الأولى: تطبيق سنة قبل التأكد من صحتها:

فبعض الشباب قد يطبق ما يظنه سنة، قبل أن يتأكد من كونها سنة فعلاً.

وأضرب على ذلك الأمثلة التالية:

المثال الأول: رأيت شاباً يلبس عمامة، قد أدارها على رأسه، وهو يمشي بين الناس، وبلدنا لم تألف العمائم التي على هذا الشكل، فكان غاية في الغرابة والشهرة، فقلت له: يا فلان! لماذا تلبس هذه العمامة وهي مخالفة لعادات أهل بلدك؟ فقال: لأن الرسول ﷺ كان يلبسها، وذكرني بأحاديث موضوعة في فضل العمامة، وأنها لباس الملائكة، وأنها..وأنها، والحق أن الأحاديث الواردة في فضل التعمم لا يصح منها شيء.

إذاً: فهو طبق سنة في ظنه دون أن يتأكد من أنها سنة فعلاً.

المثال الثاني: حلق الشارب، فبعض الطلاب يحلق شاربه تسنناً، ويتناول بعض الأحاديث الواردة دون تثبت من هذه المسألة ولا استعراض لأقوال أهل العلم فيها.

المثال الثالث: بعض الشباب ينكر على من يقوم للقادم، فإذا كنا في مجلس وقدم أحد فقمنا للسلام عليه أنكر ذلك، وذكر الحديث الوارد في تحريم القيام، ونزّلها على هذه الصورة، مع أن هذه المسألة وإن كنت لا أقول: إنها موضع اتفاق، لكن الأقرب أنه يجوز إذا كان هذا على سبيل الإكرام للقادم. وهذا

القيام للتلقي والمصافحة شيء، وقيام الأعاجم على ملوكهم ليعظم بعضهم بعضاً شيء آخر. ويعجبني في هذا المجال فتوى لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، وقد سئل عن هذه المسألة، فقال: «إن هذا من مكارم الأخلاق». فما دامت عادة أهل البلد هي القيام للقادم لمصافحته والترحيب به، وعرض المجلس الذي أنت فيه عليه فهي من مكارم الأخلاق التي لا يظهر مانع منها. والله تعالى أعلم.

فلابد للإنسان قبل أن يطبق السنة أن يتأكد أنها سنة فعلاً.

الملحوظة الثانية: التكلف في تطبيق السنة:

فبعد أن يتأكد الشاب من أن هذه المسألة سنة فعلاً، عليه أن يطبقها باعتدال، وخاصة إن كانت السنة تتعلق بالآخرين، ولذلك أمثلة منها:

المثال الأول: تسوية الصفوف.

ينبغي التأكد -فيما يتعلق بتسوية الصفوف- ما هي السنة فيها. فقد رأيت بعض إخواننا من طلاب العلم يعتقد أن السنة في تسوية الصفوف أن يلصق كعبه بكعب الذي يليه، ويتكلف في ذلك ويرص رجله عليها رصّاً شديداً؛ وهذا فيه إيذاء للجار، وفيه إشغال عن الصلاة، وفيه تكلف وتعب، فإن كانت سنة ثابتة سلمنا، لكن هل هي سنة؟ هاتوا لنا الدليل؟

قالوا: الدليل هو ما رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «لتُسَوُّنَّ صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم»[1]. ورواه

---

١. صحيح البخاري (٧١٧)، وصحيح مسلم (٤٣٦).

أبو داود بنحوه، وزاد: «فرأيت الرجل يلزق منكبه بمنكب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، وكعبه بكعبه»[٢].

ولما تأملت هذا الحديث ظهر لي أن الاستدلال به على أن هذا الفعل سنة غير مسلّم به لعدة أمور، وهي:

أولاً: أن الرسول ﷺ لم يأمر بذلك وإنما قال: «لتسوُّن صفوفكم». فأمر بتسوية الصفوف، والأصل الظاهر المتبادر من الأمر بتسوية الصفوف: يعني: ألا يكون في الصف متقدم وآخر متأخر، بل أن يكون الجميع على سمت واحد، هذا الذي أمر به النبي ﷺ.

ثانياً: أن النعمان رضي الله عنه قال: «فرأيت الرجل يلزق منكبه بمنكب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، وكعبه بكعبه». فكأن المعنى أنه يلصق كعبه وركبته في بداية الصلاة حتى يطمئن إلى أن جسمه موازٍ لجسمه؛ لأن الجسم على استقامة الكعب، فإذا حصلت الطمأنينة بهذا القياس فلا يلزم بعد ذلك استمرار الإلزاق بين الأكعب؛ إذ قد حصلت التسوية به.

ثالثاً: أن إلصاق الكعب بالكعب والركبة بالركبة حرفيّاً متعذر؛ لأنه يلزم أن يرفع الإنسان رجله حتى يلصق كعبه بكعب جاره، وركبته بركبة جاره، وكذلك الحال بالنسبة للمنكب، فيلزم أن يميل الإنسان ذات اليمين حتى يلصق منكبه بمنكب جاره، وإذا مال ذات اليمين وجدت الفجوة عن الآخر الذي عن شماله.

---

١. سنن أبي داود (٦٦٢، ٦٦٣).

وهكذا يعلم أن ظاهر الحديث لا يدل على التشديد في إلصاق الكعب بالكعب، وإنما يدل على عدم وجود فرج في الصف، ويدل على أن تكون الأجسام كلها على سمت واحد.

ولكن بعض الناس يشددون في فهم هذه السنة، وتطبيقها حتى سببوا نفوراً للناس وتسخطاً منهم.

المثال الثاني: إطالة الصلاة.

عند وجود إمام يطبق السنة على الناس، فقد يطيل عليهم في الصلاة إطالة شديدة فيشق عليهم؛ فتجده يقرأ في المغرب بالأعراف والطور، محتجّاً بالأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في قراءتها [1]، مما ينتج عنه تنفير الناس وإيقاعهم في الحرج والمشقة، والعجب أن يحتج بفعله ﷺ في واقعات خاصة، ويغفل عن أمره الصريح في قوله ﷺ: «إذا أمَّ أحدكم الناس فليخفف، فإن فيهم الصغير، والكبير، والضعيف، والمريض» [2]. وفي رواية: «وذا الحاجة» [3].

إن هؤلاء جديرون بأن يقال لهم: أفتّانون أنتم باسم السنة؟!

إن مراعاة أحوال الناس هي من السنة أيضاً، وليست الإطالة بمجردها من السنة، بل الإطالة المعتدلة مشروعة، ومراعاة حال المأمومين مشروعة أيضاً.

الملحوظة الثالثة: عدم الموازنة بين المصالح والمفاسد:

فالإنسان قد يبني قصراً ويهدم مصراً -كما يقال- فقد يفعل سنة، ويتسبب

---

١. ينظر: صحيح البخاري (٧٦٤، ٧٦٥)، وصحيح مسلم (٤٦٣)، وسنن أبي داود (٨١٢)، وسنن النسائي (٩٩٠، ٩٩١).

٢. أخرجه مسلم (٤٦٧)، والترمذي (٢٣٦).

٣. أخرجه البخاري (٩٠، ٧٠٢، ٧٠٤، ٦١١٠، ٧١٥٩)، ومسلم (٤٦٦-٤٦٨).

في ترك واجب، وقد يترك مكروهاً، ويتسبب في فعل محرم، وهذا خطأ، وليس من الحكمة؛ فالتفرق والاختلاف أمر غير محمود، بل هو محرم بين المؤمنين. والشحناء والتباغض من مقاصد الشيطان بين أهل الإسلام، فقد يبالغ الإنسان في تطبيق سنة حتى يسبب التنافر في القلوب، والتباغض بين الناس؛ ولذلك قال أهل العلم: «إن تأليف الناس مطلوب، حتى ولو أدى إلى ترك سنة من السنن».

أمثلة في عدم الموازنة بين المصالح والمفاسد:

المثال الأول: لو أن إنساناً جاء إلى أناس يجهرون بالبسملة في الصلاة الجهرية، فإذا لم يجهر كان عدم جهره مسبباً لنفورهم منه أو وجود اختلاف أو شقاق أو خصام في المسجد، فقال أهل العلم: «لا بأس أن يجهر بذلك جمعاً للكلمة، وتوحيداً للقلوب، وتأليفاً لها».

ومثل ذلك: لو صلى مع أناس لا يجهرون بالتأمين في الصلاة الجهرية، فإنه يدع الجهر بها لذلك المقصد، وإن كان يرى الجهر بالتأمين وعدم الجهر بالبسملة.

المثال الثاني: ما يقع -أحياناً- من اختلاف في عدد ركعات صلاة التراويح، أهي عشر أم عشرون؟ على نحو يسبب الشقاق والخصومة، والأخذ والرد، ويثير كلاماً طويلاً عريضاً، والقضية إما أن تكون سنة أو مباحة.

المثال الثالث: ما يتعلق بتقصير الثياب والمبالغة فيها، فبعض الشباب يبالغون في تقصير الثياب، حتى إن بعضاً منهم يضعها تحت الركبة بأربعة أصابع، أو إلى نصف الساق، ولست أقول: إن هذا منكر. لكني أقول: إن كون الشاب

يلبس ثوباً معتدلاً، ليس فيه إسبال، وليس فيه أيضاً غرابة تثير الناس وتلفت نظرهم أدعى إلى أن يكون مقبولاً عندهم، فيؤثر فيهم وينفعهم.

وهذا النوع من المبالغة في تقصير الثوب ربما كان دافعه نوع قصور في فهم السنة، وربما كان دافعه شهوة خفية توجد في نفوس البعض، حتى يكون مظهره أكثر إلفاتاً لنظر الناس وأدل على الشهرة والتميز. وإذا أردت امتحان قلبك فاخْبُرْهُ عند السنن الخفية، التي تحتاج إلى مجاهدة ومكابدة، كإدمان الذكر، ولزوم الأوراد، ونوافل الصلوات، فإنك ستجد حقيقة التسنن عند هذه المقامات.

الملحوظة الرابعة: الإنكار على تارك السنة:

فبعض الشباب قد ينكر على تارك السنة، وكأنه حَوَّل السنة إلى واجب، وربما كانت هذه السنة أمراً مختلفاً فيه، مثل أداء ركعتي تحية المسجد في وقت النهي. فينكر المصلي لهما على من لم يصلهما، أو ينكر من لا يصليهما على من صلاهما. والقضية سنة، والأمر فيها واسع، فينبغي أن يكون اشتغالنا بالقضايا الأصلية قبل اشتغالنا بهذه القضايا؛ لأن الأدلة في هذه القضايا متقاربة إن لم نقل متكافئة. وليس لمن رجح قولاً أن يستبد بترجيحه ويحمل غيره عليه، وليكن بحثنا لهذه القضايا بحكمة ورويّة وتبصر، بعيداً عن الاستعلاء في البحث، والشدة في القول، والمغالبة في المناقشة.

○ ○ ○ ○

المبحث الثامن/ الوقاية من هذه المزالق

يستطيع الشاب أن يتقي مثل هذه المزالق بأمور، منها:

أولاً: الإكثار من القراءة في موضوعات آداب طلب العلم وتربيته: وقد كتب فيه جماعة من العلماء منهم: ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، وابن الجوزي في «صيد الخاطر»، والسمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء»، والنووي في مقدمة «المجموع»، والغزالي في مقدمة «الإحياء»، وابن جماعة في «تذكرة السامع والمتكلم»، والذهبي في «بيان زغل العلم»، والشوكاني في «منتهى الأرب في أدب الطلب»، والشيخ بكر أبو زيد في «حلية طالب العلم»، وغيرهم.

ثانياً: أن يكثر طالب العلم من ملاحظة نفسه: فإذا عمل شيئاً تأمل حاله وتساءل: ما الدافع الذي دفعه إلى ذلك؟ فلا يغفل عن نفسه ويندفع لا يلوي على شيء، بل ينبغي أن يراقب نفسه ويلاحظها، ويقف لشهواتها بالمرصاد، فربما اتُبِعَت الشهوة باسم السنة، وغَلَب الهوى باسم اتباع الحق.

ثالثاً: أخذ العلم عن الشيوخ الثقات الأثبات: فيثني عندهم الركب، ويتودد إليهم، ويرفق بهم، ليحصِّل علمهم ونصحهم وتأديبهم وتربيتهم.

رابعاً: اتخاذ مجموعة من طلاب العلم يناصحهم ويناصحونه: ويكونون كالمرآة، تجلّي عيوبه وأخطاءه، ويبين لهم ما هم فيه، ويبينون له ما هو فيه من أخطاء.

خامساً: أن يسير الشاب على منهج واضح مستقيم منضبط: وألا تغلبه شهوة العلم إلى الاندفاع في جمع عشوائي للمعلومات، فإن هذا ينتج ثقافة ركامية

ولا ينتج عالماً مؤصلاً.

وأخيراً: ينبغي على طالب العلم أن يحذر عموماً من المزالق كبيرها وصغيرها، وأعظمها: المعاصي، وأخطرها: الكبائر، وأن يكون كما قال عبد الله بن المبارك رحمه الله:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا
وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوقَ أَرْضِ
الشَّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَ صَغِيرَةً
إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

• • • •



من آفات القراء

الباب / 6

هذا العنوان ليس جديداً في لفظه ولا في معناه.

فأما لفظه:

فإنني قد استعرته من الإمام المحدث اللغوي أبي سليمان الخطابي رحمه الله، وذلك في كتابه: «العزلة»؛ حيث عقد فيه فصلاً بعنوان «آفات القراء»، وقد أعجبني هذا العنوان، فاقتبسته منه.

أما من حيث الموضوع:

فهو موضوع مطروق، أعني: الحديث عن آفات طلاب العلم، وليس القراءُ إلا طلابَ علم. فقد كتب وتكلّم في هذا الموضوع كثير من الأئمة، منهم: الخطابي، وابن قتيبة، والعسكري في غير واحد من كتبه، ومنهم الإمامالذهبي في رسالة له عنوانها «بيانُ زَغَل العِلم»، إضافة إلى كلام ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»، والخطيب البغدادي، وابن القيم وغيرهم.

السبب في اختيار هذا الموضوع:

من المعروف أن آفات الناس كثيرة، وإنما اخترت الحديث عن آفات القراء لأسباب، منها:

أولاً: أن هؤلاء القراء كالثوب الأبيض النقي، ما أن يقع عليه شيء من الدنس حتى يبين فيه، فيحتاج إلى غسل وتنظيف، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ بين التكبير والقراءة، كما في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المْشرق والمْغرب،اللهم نقني من خطاياي، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد»[1].

وأما غيرهم من الناس فهم كالثوب الأسود قد تقع فيه الأوساخ، ويقع فيه الدنس، فلا يبين فيه.

ثانياً: أن القراء -كما سماهم ابن المبارك رحمه الله وغيره- هم ملح البلد؛ لأن الناس إذا فسدوا ينتظر أن يصلحهم طلاب العلم والمفكرون والقراء. فإذا فسد هؤلاء فغيرهم من باب أولى، وكان الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله يقول:

يَـا مَعْشَرَ الـقُـرَّاءِ يَـا مِلْحَ البَلَدْ

مَا يُصْلِحُ المِلْحَ إِذَا المِلْحُ فَسَدْ

وقد نقل هذا المعنى عن عيسى ابن مريم عليه السلام، كما في كتاب «الزهد» لابن المبارك[2].

---

١. صحيح البخاري (٧٤٤)، وصحيح مسلم (٥٩٨).

٢. الزهد لابن المبارك (٢٨٣).

ثالثاً: أن مثالب القراء وعيوبهم وآفاتهم تتزيا -أحياناً- في زي محاسن، ويتدسس بها الشيطان إلى نفس القارئ أو الطالب على أنها حسنة يقتبسها وفضيلة يتقمصها، فهي أحوج ما تكون إلى البيان والكشف والتعرية، حتى يحذرها القارئ وطالب العلم.

أما عن الآفات فسأتحدث - باختصار- عن عدد منها:

الآفة الأولى: الكِبْـرُ:

وهو أسوأ آفة يمكن أن يبتلى بها الإنسان، حتى إن رسول الله ﷺ صرح أنه: «لا يَدْخل الجنة منْ كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». ولما سئل: يا رسول الله! إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنةً؟ فقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس»[1].

ولو نظرنا في سيرة إمام الأئمة وعالم العلماء نبينا ﷺ لوجدنا أنه يتحلّى بالتواضع؛ حتى إنه ﷺ كان يمازح الصبيان ويداعبهم، ويجلس مع أصحابه على الأرض، ويركب كما يركبون، ويمشي على قدميه كما يمشون، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويباشر شؤونه بنفسه، ففي «صحيح البخاري» أن عائشة رضي الله عنها سئلت عن رسول الله ﷺ: كيف يكون في بيته؟ فقالت: «كان يكون في مِهْنَةِ أهله- يعني: في شغلهم- فإذا سمِع الأذانَ خرَج»[2].

---

١. أخرجه أحمد (٣٦٠٠)، ومسلم (٩١)، والترمذي (١٩٩٩).

٢. صحيح البخاري (٦٧٦، ٥٣٦٣).

وعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله! إن لي إليك حاجة. فقال: «يا أم فلان! انظري أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك». فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها [١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت» [٢].

فكان ﷺ بعيداً عن التكبر والتجبر، وقال ﷺ: «آكل كما يَأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد» [٣].

إن بعض المتعلمين قد يصابون بشيء من الكبر، وهو سبب لكل داء، فمن الأدواء التي تترتب على الكبر: ازدراء الناس واحتقارهم، وقد قال ﷺ في تفسير الكبر: «بطر الحق وغمط الناس». وفي رواية: «غمص الناس» [٤].

ومعنى غمط الناس: بخسهم حقوقهم، وازدراؤهم، واحتقارهم.

مظاهر الكبر:

المظهر الأول: أن المصاب بهذا الداء يشتهي -دوماً- أن يقع في عيوب الناس وأخطائهم، وخاصة من ينافسونه من العلماء وطلاب العلم، فتجده يقول: فلان فيه كذا، وفلان فيه كذا. والكتاب الفلاني فيه كذا. فلا يكاد يُذكر عنده شخص، أو كتاب أو عمل إلا حاول أن يجد فيه عيباً، وأن يبخسه حقه ببعض اللمزات والكلمات، وكأن لسان حال هذا المتكبر يقول: أنا المتفرد

١. أخرجه أحمد (١٢٧٦٤)، ومسلم (٢٣٢٦)، وأبو داود (٤٨١٨).
٢. أخرجه أحمد (١١٥٠٣)، والبخاري (٦٠٧٢)، وابن ماجه (٤١٧٧).
٣. أخرجه عبد الرزاق (١٩٥٤٣)، وأبو يعلى (٤٩٢٠)، والبيهقي في الشعب (٥٩٧٥)، وينظر: السلسلة الصحيحة (٥٤٤).
٤. أخرجها أحمد (١٦٥٧٥)، والترمذي (١٩٩٩).

بالصواب والسلامة من الأخطاء، أما فلان فقد أخطأ في كذا، وأما فلان فقد أخطأ في كذا، والكتاب الفلاني فيه من الأخطاء كذا وكذا. وهذا من ازدراء الناس.

وأنت لو بحثت في نفسية من يقعون في طلاب العلم والعلماء بالتشهير بأخطائهم ومحاولة البحث عن زلاتهم لإذاعتها ونشرها، لوجدت أنهم ينطلقون من نفسية مصابة بداء الكبر.

ومن عايش مثل هذا الصنف من الناس يجد أن القضية عندهم ليست قضية نقد وتقويم؛ لأن عندنا -معشر المسلمين- مبادئ للنقد والتقويم عرفناها من القرآن والسنة، وورثناها من سلفنا الصالح، وهي أصول واضحة. فلا يمنع أن يُقَوَّم العالم، فيبين أنه أخطأ في مسألة كذا، لكن مع حفظ حقه، ومن الذي لا يخطئ مرة أو عشراً أو مائة؟ كما قال الشاعر:

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاه كُلُّهَا

كَفَى المـرَءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

وما من كتاب إلا وفيه خطأ، إلا كتاب الله تعالى، أما ما عداه فلا يسلم من نقص.

ويقول بعضهم: إلا «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم».

وأقول: مع الاعتراف بأن جميع ما في البخاري ومسلم من الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ صحيح، إلا أنه من حيث كون أحدهما كتاباً، لا يمكن أن نصفه بالكمال المطلق. فقد استدرك عليه، نقص في الترتيب، وفي الترقيم والتبويب،

وفي التقديم والتأخير، وهذا واردٌ على كلّ كتاب، ولا يمكن أن نصف كتاباً بالكمال المطلق إلا كتاب الله عز وجل.

فهناك فرق بين النقد والتقويم عند المنصف وبين شهوة ازدراء الناس والحط من أقدارهم. فالتقويم يحفظ للناس حقوقهم. فأنت تبين أن هذا العالم له من الفضائل كيت وكيت، وله من المصنفات كذا وكذا، ثم لا يمنع أن تبين أنه مع جلالة قدره، فإن الله عز وجل أبى إلا أن تكون العصمة لرسله، فهذا العالم انتُقد في كذا وكذا، وهذا لا ينقص من قدره، بل كفاه نبلاً أن تعد معايبه.

وفرق بين هذا الأسلوب في النقد والتقويم الذي يضع الأمر في نصابه، وبين ذاك الذي يفرح بكل زلة لعالم، حتى يحط من قدره؛ ليستوي في ذلك عنده أكابر العلماء وأضعف الطلاب؛ لأننا نعلم أنه ما من عالم إلا وله زلة، فإن كانت هذه الزلة سوف تسقط هذا العالم فلن يبقى لنا أحد من العلماء نأخذ عنه ونقتدي به، فهذا هو بطر الحق، كما سمّاه النبي ﷺ.

وإليك صورتين في هذا الموضوع؛ لتقارن بينهما:

الصورة الأولى: ما ذكره ابن عساكر رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه كان يأخذ بركاب زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه تعظيماً له، ويقول: «هكذا أُمِرْنا أن نفعل بعُلمائنا» [١].

وابن عباس هو من هو في جلالة قدره وسعة علمه، ومع هذا يفعل ذلك، فهذه صورة المتواضع في معامله العلماء، أو الطلاب من أقرانه أو مَنْ دونهم.

١. ينظر: تاريخ دمشق (١٩/٣٢٦).

الصورة الثانية: ذكَرها الخطابي رحمه الله، فقال: «زار عبد الله بن المبارك رحمه الله رجلاً من أهل نيسابور، وكان ينسب إلى الزهد والتقشف، فلما دخل إليه لم يقبل عليه الرجل، ولم يلتفت إليه، فلما خرج من عنده أُخبر بمكانه، وأعلم أنه عبد الله بن المبارك. فخرج إليه يعتذر ويتنصل، وقال: يا أبا عبد الرحمن، اعذرني، وعظني. قال: نعم، إذا خرجت من منزلك فلا يقع بصرك على أحد، إلا أريت أنه خير منك».

وإنما نصحه بهذا؛ لأنه لمح في شخص هذا الرجل شيئاً من الكِبْر، فأدّبه بهذا الأدب، حتى يعالج هذا الكِبْر في نفسه [١].

وطالب العلم يحتاج إلى أن يعرف للرجال حقوقهم وأقدارهم وفضلهم، وألا يكون وقوع الخطأ من عالم مدعاة إلى سقوطه من عينه.

وهذه قضية تحتاج إلى أن يكون الإنسان فيها متوازناً، فلا يتابع الآخرين على أخطائهم، من باب التوقير والإجلال، ولا يكون وقوع الخطأ من أحدهم مدعاة إلى التشهير به، والحط من قدره، وازدرائه، وبخس ما له من الفضائل والمكارم.

ومن آثار الكبر وثماره السيئة: تعظيم الإنسان لنفسه:

حيث إن طالب العلم يرى نفسه شيئاً ذا بال، فتجده في مظهره ومخبره وأسلوب معاملته للناس مزهوّاً معرضاً عنهم؛ لما يرى في نفسه من الفوقية عليهم. وهذا قد يظهر على فلتات لسانه، وهو موجود في طبقات الناس. لكن الحديث عن القراء؛ نجد بعضهم إذا تحدث فإنه يستخدم عبارات العلماء، وكأنه عالم حبر

---

١. ينظر: العزلة للخطابي (٢١٨).

بحر يشار إليه بالبنان، فيقول: وأنا أرى، وعندي، والذي نرجحه، والذي نراه. ويكثر من هذه «الأنا» القاتلة في حديثه أو في تصنيفه وتأليفه، أو يقول: ولي من المصنفات كذا.

وما أجمل الكلمة التي قالها الإمام ابن القيم رحمه الله في آخر صفحة من الجزء الثاني من كتاب: «زاد المعاد»، حيث قال -وهو يتحدث عن الألفاظ المكروهة والممنوعة-: «وليحذر كل الحذر من طغيان «أنا»، و«لي»، و«عندي»، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها إبليس، وفرعون، وقارون».

فأما إبليس، فقال -كما حكى الله عز وجل عنه-: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف:١٢).

وأما فرعون، فكان يقول -كما حكى الله عز وجل عنه-: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ﴾ (الزخرف:٥١).

وأما قارون، فكان يقول -كما حكى الله عز وجل عنه-: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ (القصص:٧٨).

ثم قال رحمه الله: «وأحسن ما وضعت «أنا» في قول العبد: أنا العبد المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف. ونحوه. و«لي» في قوله: لي الذنب، ولي الجرم، ولي المسكنة، ولي الفقر والذل. و«عندي» في قوله: «اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي»»[1].

وهذه الكلمة مقتبسة من حديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

١. ينظر: زاد المعاد (٤٧٥/٢).

المتفق عليه [١].

ألفاظ غير لائقة بطلبة العلم في تأليفاتهم:

ومن الألفاظ التي يجدها القارئ اليوم في بعض الكتب التي انتشرت في هذا الوقت، أن كثيراً من الطلاب قد يكون بإمكانه أن يؤلّف بحثاً، أو دراسة من الدراسات في موضوع معين، وهذا الأمر أصبح ميسوراً لتوفر الكتب، فإذا عرف طريق البحث والتخريج استطاع أن يجمع عدداً من المخطوطات -مثلاً- ويحققها، ويخرجها للناس، ويعلق عليها بتعليقات مفيدة.

والشيء المنتقد ليس هذا، لكن أن تتسرب إلى بعض هذه المصنفات عبارات، إن كانت لائقة بالعلماء، فليست لائقة بالطلبة والمبتدئين.

فتجد بعضهم يستعملون ألفاظاً فيها مبالغة؛ قرأت قول أحدهم في أحد الكتب، وهو يمدح عالماً من علمائنا في هذا العصر فقال: ولو حلفتُ بين الركن والمقام، بأنني لم تر عيني مثله، ولم ير هو مثل نفسه، لرجوت ألا أحنث...

من السائغ أن يقول هذا الكلام الإمام الذهبي في ابن تيمية رحمهما الله، لكن من غير المناسب أن يقولها طالب علم، وإن كان عنده شيء من التمكن.

فكم رأت عينه من العلماء الفطاحلة حتى يقول: ما رأت عيني مثل فلان، ولا رأى هو مثل نفسه! أو يقول: ما أسفتُ على شيء أسفي على أنني فاتني لقاء فلان وفلان من العلماء. حيث ماتوا قبل أن يلقاهم، وكأنه قد قابل الشيوخ، وجمع الأسانيد، والتقى أعداداً كثيرة من العلماء.

---

١. صحيح البخاري (٦٣٩٨)، وصحيح مسلم (٢٧١٩).

وهذه الأساليب قد تنمّ عن نوع من التعالم، كما سمّاه الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه المفيد «التعالم»، فمثل هذه العبارات تنمّ عن نوع من تعجل التصدر و(التمشيخ).

وكلما استطاع طالب العلم أن يتحرر من هذه الألفاظ كان أجدر. وبعض هذه العبارات تتسرب دون علم الإنسان، وربما جاءت على اللسان عفواً. ولذلك أحببت التنبيه عليها حتى يتجنبها الطالب، وينتبه إليها.

المظهر الثاني من مظاهر الكبر: أن ينتظر طالب العلم من الناس التقدير والإجلال والتكريم. فإذا حضر مجلساً انتظر أن يصدروه، وأن يجعلوه في صدر المجلس، وإذا سلم عليه أحد تجد بعضهم قد يطأطئ رأسه، وكأنه ينتظر القُبلة على رأسه، وربما يرى أن من وسائل كسب احترام الناس وهيبتهم: أن يزْوَرَّ عنهم، ولا يباسطهم، ولا يحرص على الحديث معهم؛ حفظاً لوقاره وهيبته عن أن ينالها هؤلاء. وكما أسلفت أن الرسول ﷺ كان بعيداً عن هذه الأشياء، فكان يجالس الكبار والصغار، ويتحدث معهم في شؤونهم الخاصة والعامة.

وهذا الداء إذا وجد عند أحد من القراء، فإنه يؤدي إلى أن تكون لدى الإنسان مجموعة من العيوب، في الوقت الذي يظن أنه بلغ درجة الكمال، وهو لا يستفيد من أحد، ولا يسمع من أحد أيضاً، ولهذا قال ﷺ في تعريف الكبر: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس». بطر الحق يعني: ردّه؛ لأنه يرى أنه ليس فيه عيوب حتى ينبه إليها.

ورضي الله عن عمر عندما قال: «رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا»[1].

وهكذا يكون الكمال في الرجال، أن الإنسان مهما بلغ من العلم والمكانة فما كان فيه من خير فمن الله، لم يكسبه بكد يمينه، ولذلك يقول الشاعر في ذكر نعم الله:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللـه نِعْمَةً
عَلَيَّ لَـهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ أَقُـومُ الدَّهْرَ فِي بَعْضِ حَقِّه
وَإِنْ طَالَتْ الأَيَّـامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

فإذا كنت تعتقد أن ما بك من نعمة -كالعلم- من الله، فتعلَّمْ أن هذه النعمة يجب شكرها، والدعوة إليها، وتعليمها، ولا يأخذك في ذلك عجب ولا اغترار، وهذا الشكر لنعمة العلم يتطلب منك شكراً آخر، وهكذا يتطلب الشكرُ شكراً، فأنت في شكر متجدد لنعم الله عز وجل المتجددة.

الآفة الثانية: الكلام فيما لا يحسن:

فتجد بعض القراء إذا بدؤوا في طلب العلم، وحصّلوا من ذلك قسطاً لا بأس به، خُيِّل للواحد منهم أنه قد احتوى العلم بحذافيره، وأصبح يتكلم في دقيق العلوم وجليلها، وكأنه العالم المتبحِّر.

وينبغي أن نفرق في هذه المسألة -أيضاً- بين نوعين:

---

١. ينظر: سنن الدارمي (٦٤٩)، وإحياء علوم الدين (٣/ ٦٤).

بين من يقوم ببحث مسألة من المسائل الفقهية أو العقائدية أو اللغوية، ويرجع إلى المصادر المعتمدة في المسألة، ويجمع أقوال أهل العلم وأدلتهم، ويرجِّح، فيَصلُ بعد الترجيح إلى نتيجة معينة، قد يعرضها على بعض أهل العلم ويقرؤونها، وحينئذٍ يقوم هذا الطالب، ويعرض هذه النتيجة على الناس، وهذا لا بأس به في هذه المسألة بالذات.

فرق بين هذا وبين إنسان لا يترك مسألة إلا هجم عليها، ولا يُسأل سؤالاً إلا أجاب بخطأ أو صواب.

قصة الخنفشاري:

ولعلكم تعرفون القصة التي يذكرها بعض اللغويين والمتكلمين في الآداب والأخلاق، وهي أسطورة، ولكن بعض الأساطير لها تعلُّق بالواقع [1].

يزعمون أن رجلاً لغويّاً كان لا يُسأل عن كلمة إلا بيّن معناها، واستدلّ عليها بأبيات من الشعر وأقوال العلماء وغير ذلك، فشعر تلاميذه بأن هذا الرجل ليس دقيقاً فيما ينقل، وأنه قد يختلق بعض الأشياء، وينسبها إلى غيره، فاتفق التلاميذ على أن ينحتوا كلمة مختلقة ليس لها معنى موجود في اللغة العربية، ويسألوه عنها، فاجتمعوا واختار كل واحد منهم حرفاً فألفوا من ذلك كلمة، كانت هذه الكلمة هي «الخِنْفِشَار»، فجاء أحدهم إلى هذا الشيخ، وقال له: أيها الشيخ! ما الخِنْفِشَار؟ فقال الشيخ - بعد أن حمد الله وأثنى عليه-: الخِنْفِشَار: هو نبات ينبت في أطراف اليمن... وفي كذا وفي كذا، إذا أكلته

---

١. ينظر: تاج العروس (خنشفر).

الإبل عقد لبنها، ألم تسمعوا إلى قول الشاعر:

لَقَدْ عُقِدَتْ مَحبّتُكُمْ بِقَلْبِي
كَمَا عَقَدَ الحَلِيبَ الخَنْفَشَارُ

وإلى قوله ﷺ... فاستوقفوه وقالوا: يكفي هذا يا شيخ! فأوقفوه حتى لا يصل إلى الكذب على الرسول ﷺ.

فكون الإنسان يهجم على كل مسألة ليس بلائق؛ لأن طالب العلم يسير سيراً معتدلاً، فيقبل الناس عليه، ويسألونه في كل شاذة وفاذة، وشاردة وواردة.

ومن الصعب جدّاً على بعض الناس أن يُسأل عشرين سؤالاً فيقول عن عشرة منها: لا أدري، أو: الله أعلم.

وهذا الإمام مالك رحمه الله قد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري. ورحل إليه رجل من مسيرة ستة أشهر، فقال: لقد حَمَّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها. قال: فسل. فسأله عن أشياء، فقال الإمام مالك رحمه الله: لا أحسن. فبهت الرجل وقال: فأي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم؟! قال: تقول لهم: قال مالك: لا أحسن[1].

إن الناس قد يخرجون طالب العلم عن طوره، بأن يضعوه في غير موضعه، ولذلك قال بعض السلف: «إن وَقْعَ الأقدام خلف العالم مَزَلَّةٌ لعقول الحمقى». أما العالم الرباني فإنه يعلم قدر نفسه، ولا يغتر بإقبال الناس، أو ثنائهم، أو كثرة مساءلتهم له.

---

١. ينظر: مقدمة الجرح والتعديل (ص:١٨)، والتمهيد (١/٧٣)، وجامع بيان العلم وفضله (١٥٧٣)، وأدب المفتي والمستفتي (١/١٣).

ومما ينبغي أن تعرف في هذا الباب أن مجرد الاطلاع، والبحث عن العلم والكتب لا يكفي وحده في تحصيل العلم، بل لابد من أدوات عند الإنسان، وفي هذا تعجبني كلمة للإمام الجويني في كتابه: «غِياثُ الأُمَمَ في الْتِيَاثِ الظُّلَم»، فقد ذكر في هذا الكتاب ضمن فوائده الكثيرة كلمة سماها: التدرب في فقه النفس، حيث قال: وأهم المطالب في الفقه التدرب في مآخذ الظنون في مجال الأحكام وهو أنفس صفات علماء الشريعة [١].

والذي أظن أنه يقصد بذلك:

أولاً: وجود مَلَكة للاستنباط عند القارئ أو المتفقه، أي: أن تكون عنده عقلية جيدة قابلة للتفقه والتعلم.

ثانياً: التمرُّس والتدرب على الترجيح والانضباط في ظل بعض العلماء المصححين له، حتى يشب عن الطوق، وتصبح لديه إمكانية الاستنباط بالاستخراج، والترجيح، وغير ذلك.

الآفة الثالثة: التوقُّر المبكر:

حيث تظهر أهمية الشعور بأهمية التوقر ولبس لباس العلماء والتزيِّي بزيِّهم قبل أوانه، أما في أوانه فمطلوب، وقديماً قيل:

وَتَشَبَّهُوا إنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ
إنَّ التَّشَبُّهَ بِالكِرَامِ فَلَاحُ

١. غياث الأمم في التياث الظلم (ص: ٢٩٠).

ولكن وضع الشيء في غير أوانه ليس من الحكمة؛ لذلك كان السلف يرغبون لطالب العلم أن يجالس الفتيان حتى يأخذ عنهم حُسن الخلق وسلامة الطبع ولِين العَريكة.

يقول سفيان الثوري: «لأن أَصْحَب فتًى أحبُّ إليَّ من أن أصحبَ قارئاً».

ويقول: «مَن لَـمْ يَتَفَتَّ لَمْ يُحْسِنْ يَتَقَرَّى».

يفسر الإمام الخطابي في كتاب «العزلة» معنى كلمة سفيان تفسيراً جيدّاً ذا علاقة كبيرة بما نحن بصدده، فيقول: «إن من عادة الفتيان ومن أخذ بأخذهم بشاشة الوجه، وسماحة الخُلُق، ولين العريكة. ومن شيمة الأكثرين من القراء الكزازة وسوء الخلق، فمن انتقل من الفُتوة إلى القراءة، كان جديراً أن يتبقى معه تلك الذوقة والهشاشة، ومن تقرَّأ في صباه لم يَخْلُ من جفوة أو غلظة»[١].

وهذا ليس على إطلاقه، وإنما يوجد عند طائفة، بل إنني أقول، حتى أكون دقيقاً: طائفة ضئيلة من القراء، ولكن القراء- كما أسلفت- هم كالثوب الأبيض، كل دنس يشينه، مهما قل أو دقّ.

فينبغي على الإنسان أن يحرص على مخالطة الناس حتى يستفيد من أخلاقهم وتبسطهم، ويحفظ نفسه عن الكبر والتجبر، ويحتفظ بقدر من التواضع وحسن المعاملة لهؤلاء الناس، والبعد عن التوقر في غير أوانه.

---

١. ينظر: العزلة (٢١٩).

الآفة الرابعة: الوقوف عند مستوى معين في العلم:

فتجد الإنسان يشعر في مرحلة من مراحل العمر أنه وصل إلى درجة من العلم كبيرة، فأصبح اهتمامه بالعلم والتحصيل أقل. ومن المعلوم أن العلم في حركة مستمرة، حتى لو نظرنا إلى العلم الشرعي لوجدنا أنه تُطبع مئات الكتب الإسلامية مما لم يكن للناس به عهد، ولم يكن لهم عليه اطلاع، ولذلك تسنًّى لكثير من العلماء المتأخرين من الاطلاع على كتب العلم ما لم يتسن لمن قبلهم؛ لتيسُّر الوصول إلى الكتاب والظفر به.

فلا ينبغي للإنسان أن يقف عند حد معين، واليوم الذي يشعر الإنسان فيه أنه قد وصل إلى مستوى الكمال هو اليوم الذي ينتهي فيه هذا الإنسان.

مثال على الحرص على طلب العلم:

وقد ذكر ابن عساكر عن أبي القاسم الصوفي، فيما يحكيه عنه أبو عبدالرحمن السلمي أحد تلاميذه، أن أبا القاسم هذا كان من أكثر الناس حرصاً على جمع الفوائد وتقييدها، قال: خرجت معه إلى الحج. فكنا إذا دخلنا مدينة أخذ المحبرة والمقلمة والورق، وقال: يا فلان! هلُمَّ بنا نسمع الحديث. فلا يدع أحداً يعلّم ويَرْوِي ويقرأ إلا أخذ منه، حتى إنه لما جاء إلى مكان الرمل في وادي مُحسِّرٍ -والناس فيه يتخففون من أمتعتهم- أخرج القلم والمحبرة والورق، فقلت له: أيها الأستاذ، رحمك الله حتى في هذا الموضع! وماذا تصنع بها؟ قال: يا أبا عبدالرحمن، ربما أسمع شيئاً من جمَّال أو غيره أثبته كي لا أنسى [(١)].

١. ينظر: تاريخ دمشق (٧/١٠٩-١١٠)، ترجمة أبي القاسم الصوفي إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمويه النصرآباذي.

الآفة الخامسة: التعصب للرأي:

سواء كان لرأي الرجل نفسه أو لرأي شيخه، ويضيق عنده الأفق عن سماع ما عداه.

ولعل من أهم أسباب هذه الآفة: أن القارئ يتربى على رأي واحد منذ نعومة أظفاره، يصححه ويُدلِّل عليه وينتقد ما سواه. فهو قد نشأ وشبَّ على حب التقليد والتمسك بهذا الرأي، وأصبح يجزع حين يسمع نقداً لهذا الرأي أو يرى مخالفاً له.

الآفة السادسة: العزلة عن المجتمع وشؤونه وشجونه:

فإن الإنسان قد يجد لذة كبيرة في المعاملة مع الكتب، كما كان الشاعر يمتدح الجلوس مع الكتب ويقول:

لَنَا جُلَسَاءٌ لاَ نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ
أَلِبَّاءُ مَأْمُونُونَ غَيْباً وَمَشْهَداً

ويقول الآخر:

وَخَيرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

فمعاملة الكتب مريحة؛ لأنك تقرأ الكتاب، فإن شئت أن تَقْبَل فاقبل، وإن شئت أن ترد فرد. ولذلك قد يرتاح طالب العلم في المعاملة مع الكتب والبحث، فيغفل عن مهمته في الحياة والمجتمع، وقد سبق التنبيه على ذلك مع بعض البسط.

وأخيراً: فحين أذكر هذه الآفات فإنها ليست إلا قطرة في بحر فضائل القراء وحسناتهم، فإن هؤلاء القراء هم خير الناس، وقد ذكر أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أمر بتولية الفقهاء، فقال له بعض من حوله: قد وليناهم فوجدناهم خونة. فقال: «ويحك! وَلِّهِمْ؛ فإن كانوا خونة فغيرهم أخون».

ونحن جميعاً -إن شاء الله تعالى- ندين الله بحب أهل العلم وحب أهل القرآن والحديث؛ لأن في هذا قربة وطاعة لله تبارك وتعالى، ولأن حبهم دين وإيمان، وبغضهم نفاق وعصيان، لكن هذا لا يمنع من التناصح فيما بيننا، وأن يبين كل إنسان منا ما يعلمه في إخوانه من العيوب، والمؤمنون بعضهم نصحة لبعض.

• • • •

الباب / 7

اقتضاء العلم للعمل

إن الله تبارك وتعالى إنما أنزل الكتب وأرسل الرسل من أجل أمر واحد وهو إقامة الحجة على العالمين؛ قال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّـهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء:١٦٥). وإذا كان كذلك، فإن من يعلم ببعثة الرسل ويدري بإنزال الكتب ليس كمن لا يدري عن ذلك شيئاً.

ولذلك قال الله تبارك وتعالى حاكياً عن رسوله ﷺ: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ (الأنعام:١٩). يعني ومن بلغه هذا القرآن فهو مُنْذَرٌ له.

وقال الرسول ﷺ عن هذا القرآن: «والقرآن حجة لك أو عليك»[١].

فكل من سمع القرآن إما أن يكون هذا القرآن حجة له، وذلك لمن عمل وأخذ بما فيه من الهدى والنور، وامتثل أوامره، واجتنب نواهيه. وإما أن يكون حجة عليه، وهو من أعرض عن هذا القرآن.

١. أخرجه أحمد (٢١٨٣٤)، ومسلم (٢٢٣)، وابن ماجه (٢٨٠)، والترمذي (٣٥٧١)، والنسائي (٢٤٣٧).

ومن العجيب أننا نتلو هذا القرآن بكرة وعشية، ونسمع من يقرؤه، ثم لا نتأثر، وربما تجد الإنسان يتأثر بأقوال الناس أكثر مما يتأثر بقول الخالق جل وعلا.

وأضرب لذلك مثلاً: يقول الله تعالى عن كتابه: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (الحشر:٢١). هذه الآيات التي لو أنزلت على جبل لتصدع من خشية الله، وقد يسمعها سامع فلا يتأثر، ثم يسمع داعياً يدعو في قنوت، أو واعظ يعظ، فيتأثر، وقد يبكي، ويلين قلبه، فنقول: هذا دليل على خلل في الإيمان.

يقول الله عز وجل عن كتابه: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٥) وقال في الآية الأخرى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الجاثية:٦). فإذا لم تتأثر -أيها الإنسان- بهذا القرآن وتستجيب له، فكيف تستجيب وتتأثر بغير القرآن، فكلام الله عز وجل غاية في الفصاحة والبلاغة والإعجاز والتأثير؛ ومن يقرؤون هذا القرآن بقلوب حية يتأثرون به تأثراً عظيماً.

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على بأسه وشدته في الحق، كان يقرأ الآية من القرآن في صلاة الفجر، وهو يصلي بالناس، فيُسمع نشيجُه وبكاؤه من وراء الصفوف [١].

وكثير من الصالحين إذا سمعوا القرآن تأثروا به واستجابوا؛ لأنه كلام الله تبارك وتعالى.

١. أخرجه عبد الرزاق (٢٧٠٣، ٢٧١٦)، وسعيد بن منصور (١١٣٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٥٣٠)، وابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٤١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٥٨).

إذا عرفت ذلك، عرفت معنى الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»[1].

فرق بين من سمع باسم محمد ﷺ وباسم الإسلام وبرسالة الإسلام، وبين من لم يسمع، فإن من مات وقد عرف الإسلام وعرف القرآن وعرف محمداً ﷺ، ثم لم يسلم، فهو من أهل النار، خالداً مخلداً فيها أبداً، ولا يجوز أن يُدعَى له بالمغفرة في حال من الأحوال.

وقد سألت عائشةُ رضي الله عنها الرسول ﷺ عن رجل من أهل الجاهلية يقال له: عبدُ الله بن جدعان، وكان هذا الرجل كريماً واسع البذل، محسناً إلى الناس، حتى إنه عقد في بيته حلفاً في الجاهلية لنصرة المظلوم، والاقتصاص من الظالم، وحمايةِ الضعيف، مما يدل على أنه رجل كان يحب الإحسان إلى الناس، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عمَّا كان يفعله عبد الله بن جدعان في الجاهلية، هل ينفعه ذلك؟ فقال لها: «لا يا عائشة! إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[2]. يعني: مات ولم يسلم ولم يَدْعُ الله عز وجل، ولم يتوجَّه إلى الله بالعبادة، فلا ينفعه ما كان عمل؛ لأنه لم يهتدِ بهدي الرسول ﷺ.

١. صحيح مسلم (١٥٣).
٢. أخرجه أحمد (٢٣٤٨٠)، ومسلم (٢١٤).

فكلُّ مَنْ سمع بالإسلام وبمحمد ﷺ وبالقرآن، ثم لم يسلم، فهو مِنْ أهل النار.

وفى الحديث الآخر الصحيح يقول الرسول ﷺ: «حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار»[1].

أما الإنسان الذي لم يسمع بالإسلام أصلاً، ولم يعلم بنبوة الرسول ﷺ، أو لم يكن أهلاً لذلك، كمن مات وهو طفل أو مجنون، أو في بلد بعيد، لم يعرف الإسلام، ولم يدر عنه شيئاً، أو في زمن الفترة، فهذا لا يقطع له بأنه من أهل النار. ولا يقطع بالنار إلا لمن شهد له الرسولُ ﷺ بذلك.

إذاً: هناك فرق بين من علم ومن لم يعلم، وبين من سمع ومن لم يسمع.

فالكلام الذي نسمعه في خطب الجمع، وفي المحاضرات، أو نقرؤه في الكتب من كلام الله تبارك وتعالى، أو من كلام الرسول ﷺ، أو من كلام أهل العلم والوعاظ والمهتدين، يجب أن نتنبه إلى أنه إما حجة لنا أو علينا. وهذا يجعل الإنسان -من جهة- حريصاً على استماع المواعظ والحضور إليها، ولكن يجعله -من جهة أخرى- حريصاً على أن يفهم ما يقال فيها، وأن يطبق ما يقال؛ ليكون الكلام حجةً له لا عليه.

○ ○ ○ ○

١. أخرجه عبد الرزاق (١٩٦٨٧)، وابن ماجه (١٥٧٣)، والبزار (١٠٨٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٢٦).

أنواع الوعاظ والمرشدين الذين تحتاجهم الأمة:

نحن بحاجة إلى نوعين من الوعاظ والمرشدين:

النوع الأول: الواعظ الذي يعلمنا ما جهلنا: يقول ابن المبارك: «لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل»[1].

وهؤلاء أصحابُ الرسول ﷺ كانوا يسألونه في أمور دينهم، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ (المائدة:١٠١). فصار المهاجرون والأنصار القريبون من الرسول ﷺ منهيين عن السؤال عن كثير من الأمور، ولذلك قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع»[2].

لأنه يسأله عن أشياء يستفيدون هم منها، وهم لا يستطيعون أن يسألوا الرسول ﷺ، فكان الأعراب يسألونه عن كثير من أمور دينهم.

وقد ورد أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، وهو يخطب على المنبر، حتى وقف قبالة الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله! رجل غريب، جاء يسأل عن دينه -بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ- فما كهره الرسول ﷺ، ولا نهره، وإنما نزل من المنبر، فوضع له كرسي قِبَل هذا الرجل، فجلس وعلمه علوم دينه الأصلية، ثم رجع إلى خطبته فأتمها[3].

---

١. ينظر: المجالسة وجواهر العلم للدينوري (ص:٣٠٨)، وإحياء علوم الدين (١/٥٩).

٢. أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٣١٨)، وأحمد (١٢٠٠٢)، ومسلم (١٢).

٣. أخرجه أحمد (١٩٨٢٦)، ومسلم (٨٧٦)، والنسائي (٥٣٧٧).

النوع الثاني: الواعظ الذي يذكرنا بالاستفادة من الأشياء التي نعرفها من قبل:
هذا النوع لا يقل أهمية عن النوع الأول، فهناك أمور كثيرة نعرفها ولم نستفد منها كما ينبغي، وهذه الأشياء تكون حجة علينا.

وهذه بعض الأمثلة:

المثال الأول: أننا -بحمد الله- عرفنا ما بعث الله به نبيه محمداً ﷺ، وعرفنا ربنا عز وجل، فوحدناه بالعبادة فلا نشرك معه أحداً، ولكن مع ذلك يقول لنا الرسول ﷺ: «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»[1].

وإحصاء هذه الأسماء يعني أموراً عديدة:

الأمر الأول: أن نعرف هذه الأسماء، ونحفظها عن ظهر قلب؛ بحيث يكون بإمكان الواحد منا أن يعدِّد هذه الأسماء ويسردها سرداً.

الأمر الثاني: أن يعرف الإنسان ما معنى كل اسم من هذه الأسماء. فقد يحفظ الإنسانُ الاسم، ثم لو قلت له: ما معنى هذا الاسم لم يعلم معناه.

فينبغي علينا بعد أن نحصيها ونحفظها أن نعرف معنى كل اسم من هذه الأسماء.

الأمر الثالث: أن ندعوه سبحانه وتعالى بهذه الأسماء؛ قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف:١٨٠). فأوجب الله تبارك وتعالى علينا أن ندعوه بأسمائه وصفاته.

١. أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

الأمر الرابع: أن تكون معرفتنا بهذه الأسماء والصفات داعية لنا إلى فعل الخير، ومانعة لنا من فعل الشر؛ بمعنى: أنك تعرف أن الله رقيب عليك، مطلع على عملك، لا تخفى عليه خافية، فإذا عرفت هذا الأمر واستقر في قلبك صرت تشعر -وأنت في الخلوة- أن عليك رقيباً، كما قيل:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْماً فَلَا تَقُلْ
خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً
وَلَا أَنَّ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

فمعرفتك بأسماء الله تجعلك تخاف من الله وتحبه وترجوه، بل تجعلك لا تخاف إلا منه، ولا تحب الحب الحقيقي الكامل إلا لله، ولا ترجو إلا الله.

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: «العِلم عِلمان: علم في القلب؛ فذلك العلم النافع، وعلم في اللسان؛ فذلك حجة الله على ابن آدم»[١].

وقد رُوي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ولا يصح[٢].

إذاً لا بد أن نعرف معنى كل اسم من أسماء الله، وأن نربي أنفسنا على التأثر بهذه الأسماء، والخوف من الله عز وجل، والرجاء في الله، وطلب ما عند الله، وإنما ذكرت قول رسول الله ﷺ: «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة» تمثيلاً، وإلا فهناك نصوص شرعية كثيرة

١. أخرجه الدارمي (٣٦٤).
٢. ينظر: العلل المتناهية (٨٨، ٨٩)، والسلسلة الضعيفة (٣٩٤٥).

نعلمها بألسنتنا، لكن لم تدخل قلوبنا، فلا تكون هذه الأمور حجة لنا إلا إذا دخلت قلوبنا، أما إذا كانت على ألسنتنا فيجب أن نعلم أنها حجة علينا.

وكلنا مؤمنون بيوم الحساب، لكن كم منا من يحسب الحساب ليوم الحساب في كل عمل من أعماله، ويعمل هذا العمل وهو ينتظر أنه سيجزى عليه غداً، ويترك هذا العمل وهو ينتظر أنه سيُجزى غداً على تركه؟!

المثال الثاني: معرفة الشيطان، فكل الناس يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم، ويدركون أنه عدو لهم، وأن الله أمرنا أن نتخذه عدواً في قوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (فاطر: ٦). ولكن ما الفرق بين أول الآية وآخرها، أي: بين قوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾، وقوله: ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾؟

الفرق هو: موضوع هذه الرسالة، فالقسم الأول من الآية هو الخبر: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾، والله سبحانه وتعالى يعلم أننا جميعاً نعرف هذه العداوة، ومع ذلك عقب عليه بثمرة هذا العلم وهو قوله: ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾ يعني: لا تكتفوا بمعرفة عداوته، حتى تقفوا منه موقف العدو من عدوه، فإذا أمركم بأمر، فاعرفوا أن هذا من كيد العدو لعدوه؛ فاتركوا هذا الأمر، وإذا ثبطكم عن الطاعة، فاعرفوا أن هذا من كيده لكم، فاستقيموا عليها والزموها، واحرصوا عليها.

ففرق بين إنسان يردد بلسانه: إن الشيطان عدوي. وبين إنسان يعرف في قرارة قلبه أن الشيطان عدو مسلط عليه، وأن الشيطان لا يألوه جهداً بالكيد، فيواجه

كيده ووسواسه بالمجاهدة والمصابرة.

إن العلم الذي يفيدك ليس العلم الذي تسمعه بأذنك، أو تعرفه بعقلك، أو تقوله بلسانك، بل هو العلم الذي يصل إلى قلبك، فيجعلك تنشط للطاعة وتبعد عن المعصية. ونحن بحاجة إلى من يعلمنا ما نجهل من أمور ديننا، كما أننا بحاجة إلى من يذكرنا بأن نستفيد مما نعرفه، مثل معرفتنا بالله، ومعرفتنا بالرسول ﷺ، ومعرفتنا بالجنة، ومعرفتنا بالنار، وإيماننا بالموت، ومعرفتنا بعداوة الشيطان، وغير ذلك من الأمور.

• • • •



عالم الشرع بين الواقع والتمثيل

الباب / 8

العالم هو من خير البرية، ويتبوأ منزلة دونها منازل الناس أجمعين، كما ذكر الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر:٢٨)، وبما أخبر الرسول ﷺ في سنته بقوله: «العلماء ورثة الأنبياء»[١].

وقد كان علماء هذه الأمة من السلف الصالح رضي الله عنهم ترجمة واقعية لما يريده الإسلام من العالم، في مظهره ومخبره، في علمه وعمله، ودعوته وسائر تقلباته.

وكلما تقادم العهد بهذه الأمة وبعدت عن المنابع الأصيلة، وطال عليها الأمد، ضعف هذا الأمر، وقل العلماء العاملون المخلصون، وبهتت الصورة التي كان عليها العالم المسلم في عهود السَّلَف الصالح رضي الله عنهم أجمعين؛ ولذلك تحتاج الأَمة بين آونة وأخرى إلى أن تستحضر صورة هدي ما كان عليه أولئك العلماء؛ ليكون حافزاً لها على السير على خطاهم وتقفي آثارهم.

١. أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨).

المقارنة بين هدي السلف والخلف في طلب العلم:

لا شك أن الصورة المثالية للعالم التي جاءت في القرآن والسنة بشكل نظري، وطبقت في واقع الحياة في العصور الأولى بشكل عملي، لاشك أن مقايستها بالصورة الحالية لطلاب العلم أمر يطول عنده الحديث، فإن الفرق ليس محصوراً في جانب واحد حتى يمكن استقصاؤه والحديث عنه، بل في جوانب متعددة: في المنهج، وفي طريقة التعلم، وفي طريقة التعليم، وفي الأسلوب، وفي الهيئة الظاهرة والباطنة، ولذا فسيدور البيان على ثلاثة جوانب، مع بيان الفرق فيها بين ما كان عليه علماء السلف الصالح، وما آل إليه الأمر في هذا الزمان.

وهذه الجوانب الثلاثة هي:

أولاً: الاستمرار في تحصيل العلم.

وثانياً: التأثر بالعلم والعمل به.

وثالثاً: القوة في الحق.

○ ○ ○ ○

الوسائل المادية الميسرة لطلب العلم في العصر الحاضر:

هناك أمور أصبحت ميسّرة لطالب العلم اليوم لم تكن ميسورة لطلاب العلم في العهود الماضية ومنها:

١- **الرفاهية المادية والرخاء المعيشي الذي يعيشه طالب العلم**: إذ إن طالب العلم قد كُفي كثيراً من الجهد في طلب الرزق، وأصبحت الأمور ميسرة لديه من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومركب، بصورة لم تكن ميسرة لطالب العلم في أي عهد مضى، وعلى النقيض من ذلك كان علماء السلف رضي الله عنهم يلاقون المشاق والصعاب في حياتهم بسبب ضيق ذات اليد.

٢- **سهولة الاتصال في العصر الحاضر وصعوبته بالنسبة للسلف**: كان الواحد منهم يضطر إلى الرحلة من الحجاز إلى مصر أو اليمن أو الشام في طلب حديث واحد، وقد يرحل رحلات عدة في طلب حديث واحد، ولهم في ذلك قصص وطرائف مذكورة في مواطنها ككتاب «الرحلة في طلب الحديث» للخطيب البغدادي.

أما في عصرنا: فوسائل الاتصال أصبحت ميسرة بحيث يستطيع الإنسان أن يقطع آلاف الأميال في ساعات وبكل راحة وهدوء. وخلال سفره يستطيع أن يستثمر وقته فيما ينفعه من قراءة وحفظ، وقد لا يحتاج إلى السفر في كثير من الأحيان لتوفر وسائل الاتصال المتنوعة.

٣- **وفرة الكتب**: فالمكتبات تقذف يوميّاً أعداداً كبيرة من الكتب في شتى ألوان المعرفة، وعلى رأسها المعارف الإسلامية؛ إذ من السهل أن يحصل الطالب على هذه الأشياء. أما السلف فلم يكن من الميسور لأحدهم أن

يحصل على كتاب إلا بأغلى الأثمان؛ لأنهم كانوا ينسخون الكتب بأيديهم، مما يجعل الكتاب مكلفاً ونادراً.

ميزات طلب العلم عند السلف:

مع تيسر وسائل الطلب المادية في عصرنا، إلا أن أسلافنا تميزوا بأمور جوهرية أساسية متى وجدت حُصِّل العلم، وإذا فقدت فقد العلم، وإن وجدت الوسائل المادية كلها، ومن أهم هذه الميزات:

١- **الإخلاص**: فقد كان دافعهم هو ابتغاء وجه الله تعالى فيما يتعلمون، فلم يكن قصد أحدهم -مثلاً- أن يحصّل علماً يباهي به العلماء، أو يتصدر به المجالس، إنما كان قصدهم معرفة شريعة الله، والعمل بها، ونقلها إلى الناس، والدعوة إليها، وبهذا القصد يصبح طَلَبُ العلم ميسوراً مباركاً فيه.

٢- **قوة الهمة**: فبالهمة العالية يستسهل الصعب، وما قطعهم للمسافات وتحملهم للمشاق في تحصيل العلم إلا بالهمة القوية، أما طالب العلم في عصرنا فإنه إذا تعسر عليه فَهْم باب من أبواب العلم فلم يفهمه تمثّل بقول الشاعر:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعْهُ

وَجَـــاوِزْهُ إلى مَـا تَـسْـتَـطِـيعُ

ويخيل إليه أنه بذل وسعه في التحصيل فلم يفلح.

٣- **التفرغ لطلب العلم**: ولذا كان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: «لو كلفت شراء بصلة ما فهمت مسألة». وليس معناه أن طالب العلم في عصرهم عالة

على غيره، بحيث يتفرغ هو والمحسنون ينفقون عليه، لكن المقصود أن طالب العلم لديه جو مناسب في تحصيل العلم، ولديه تفرغ قلبي من الشواغل.

٤- وجود القدوة الصالحة: فكان السلف رضي الله عنهم يجدون القدوة الصالحة في هذا السبيل، والقدوة تضعف كلما تقدم الزمن. فالجيل الأول -جيل الصحابة- عاصروا النبي ﷺ واقتدوا به، والتابعون اقتدوا بالصحابة، وأتباع التابعين اقتدوا بالتابعين، وهكذا كلما تقدم الزمن ضعفت القدوة؛ ولهذا ذكر الإمام الذهبي رحمه الله في «التذكرة» قول بعضهم: «كان أبو داود -صاحب السنن- يُشبَّه بأحمد بن حنبل في هديه ودله وسمته، وكان أحمد يُشَبَّه في ذلك بوكيع، وكان وكيع يُشَبَّه في ذلك بسفيان، وسفيان بمنصور، ومنصور بإبراهيم، وإبراهيم بعلقمة، وعلقمة بعبدالله بن مسعود رضي الله عنه»[(١)].

فالسلف الصالح كانوا يجدون في حياتهم قدوة حسنة تَضْرِب لهم أروع الأمثلة في الدَّأب والجِدّ في طلب العلم والعمل به، وتحمل المشاق في ذلك، وهذه القُدُوات وإن كنا فقدناها في عصرنا، إلا أننا لا نعدم قُدُواتٍ تشحذ هممنا وتذكي نار عزائمنا.

○ ○ ○ ○

١. تذكرة الحفاظ (٢/٥٩٢)، وينظر: البداية والنهاية (١١/٥٥).

جوانب من هدي السلف في طلب العلم:

وبعد التمهيد بذكر ما تميز به عصر السلف من البذل والجد، وما تميز به عصرنا من الماديات، نلخص الجوانب الثلاثة التي يدور عليها العنوان، وبها تعقد المقارنة بين ما كان عليه السلف الصالح وما نحن عليه اليوم، وأول هذه الجوانب:

١- الاستمرار في تحصيل العلم:

لقد عمل السلف الصالح بهذا الجانب امتثالاً لقول الله عز وجل: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٩). فإن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بالعبادة، وحدَّد له وقتاً ينتهي فيه هذا العمل الذي كُلِّف به، وهو الموت: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، أما قبل ذلك فلا يزال في عبادة ومجاهدة، ولا شك أن العلم من أَجَلِّ الطاعات وأعظم العبادات، بل ذكر جماعة من أهل العلم أنه أفضل من نوافل العبادات من وجوه عديدة.

ولسان حالهم يقول: «اطلب العلم من المهد حتى اللحد».

ولهم في ذلك قصص وحكايات كثيرة، لعل من أشهرها ما حكي عن الإمام أحمد رحمه الله، أنه رآه بعضهم ومعه محبرة في آخر عمره وعلى كبر سنه، فتعجب من ذلك، وسأل الإمام أحمد، فقال الإمام أحمد رحمه الله: «مع المحبرة إلى المقبرة»[1].

---

١ . ينظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص:٣١)، وتلبيس إبليس (ص:٤٠٠)، والآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٥٨).

وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾، فلا يلقي عصا التسيار حتى يأتيه الموت.

وأما عبد الله بن المبارك رحمه الله، فقد كان يغشى المجالس ويسمع الحديث، ومع ذلك تعجب الناس من كثرة علمه وتحصيله، فسألوه عن ذلك فقال: «لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد»[1].

فهو يخشى أن تكون الكلمة التي فيها نفعه لم يسمعها بعد، فلهذا كان يغشى مجالس العلم.

ومثل ذلك: ما رواه ابن عساكر في تاريخه عن أبي القاسم الصوفي، أنه خرج إلى الحج وهو شيخ كبير، فكان معه مقلمة ومحبرة وبياض -يعني: ورق بياض، وكانوا يسمونه الكاغد- وأجزاء، فكان كلما نزل في مكان قرب قرية أو بلد قال لتلاميذه: هلموا. فيذهبون ويحضرون مجالس الحديث ويدونون الفوائد. حتى ذُكر أنه كان في وادي محسِّر، والناس يحاولون أن يتخففوا فيه من أحمالهم ومعه المقلمة والمحبرة والبياض والأجزاء، فقال له تلميذه أبو عبد الرحمن السلمي: يا أستاذ! تحملها وأنت في هذا المكان الضيق، والناس يتخففون من أمتعتهم؟! فقال: لعلي أسمع فائدة من جَمّال أو غيره فأقيدها... كما سبق ذكر هذه القصة.

فهذه صور معبرة من صور الدأب في تحصيل العلم، وعدم القناعة باليسير منه.

[1] ينظر: الجرح والتعديل (١/ ٢٨٠)، وجامع بيان العلم وفضله (٥٨٧)، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٦٦٢)، وتاريخ دمشق (٣٢/ ٤٠٨).

أما إذا نظرت إلى الصور المقابلة في واقعنا، وجدت أن كثيراً من طلاب العلم اليوم يعتبر أن تخرجه من الكلية هو آخر عهده بطلب العلم، فيخيل إليه بعد حصوله على هذه الشهادة وتوجهه إلى التدريب أو غيره أنه قد حصل على العلم المطلوب، فتوقفت بذلك جهوده في طلب العلم وتحصيله، مع أننا ندرك مقدار ما يحصله الطالب في الكليات الشرعية، وأنه يعد مفتاحاً لأبواب العلم الواسعة، وييسر الوصول إلى العلوم النافعة. أما أن يكون هو العلم الذي يكفي الطالب فليس الأمر كذلك.

ومنهم من يعتقد أن إنهاء ما يسمى بمرحلة «الماجستير» أو «الدكتوراه» هو آخر عهده بالعلم؛ مع أن هذا البحث أو البحثين ينصبان في موضوع واحد، ومهما أجاد فيه الطالب، إلا أنه يبقى معزولاً عن غيره من الموضوعات، فضلاً عن غيره من الفنون التي قد يجهلها بأكملها.

ومن الصور المظلمة: ما يظنه بعض المعاصرين من أن وصوله للتصدر والسيادة هو الغاية في تحصيل العلوم والمعارف؛ فإذا صار متفقهاً أو فقيهاً وجلس للطلاب أو أفتى أو وعظ، توقف عند ذلك التحصيل. وهذا أمر ملحوظ. وقد كان عمر رضي الله عنه خبيراً بالنفوس حينما قال: «تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا»[1].

فهو رضي الله عنه يرمي إلى أن الإنسان إذا صار سيّداً سواء برئاسة دنيوية أو برئاسة دينية فإن فرص الإنسان في التحصيل تقل، ولهذا قال: «تفقهوا قبل

١. ذكره البخاري في صحيحه معلقاً في كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة.

وأخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب في كتاب العلم (٩)، وابن أبي شيبة (٢٦١١٦)، والدارمي (٢٥٠)، والبيهقي في الشعب (١٦٦٩) مسنداً.

أن تُسَوَّدوا». وعقّب الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله على كلمة عمر رضي الله عنه هذه بقوله: «وبعد أن تُسَوَّدوا».

فأبان البخاري رحمه الله بأن الفقه مطلوب قبل السيادة وبعد السيادة، مع أن من الملحوظ أن حركة العلم دائبة لا تنقطع؛ ولعل من أبرز ما يدلل على هذا: ما نلحظه اليوم في هذه النهضة العلمية، فكم من مخطوطٍ كان كثير من العلماء المشهورين يتمنون الحصول عليه، فأصبح اليوم في متناول كل طالب، وتجده مطبوعاً محققاً مخدوماً رخيص الثمن.

وكم من كتابٍ كانت المادة العلمية فيه غير مرتبة، ككتب المسانيد -مثلاً- أو بعض كتب الثِّقات، ككتاب «الثقات» لابن حبان، وكتب التراجم أو غيرها، فقد كان العالم يَجهدُ في البحث عن بغيته فلا يحصل عليها، وقد أصبح اليوم ميسراً لطلاب العلم عن طريق الفهارس الكثيرة.

وكم من مسألة كانت مفرقة بين بطون الكتب في الماضي، فقيض الله لها في هذا العصر من يجمع أشتاتها في بحث واحد يقربه للناس.

وهذا لا يعني التزكية المطلقة لهذه الأعمال والبحوث، إنما المراد الإشارة إلى أن حركة العلم في هذا العصر في تحرك مستمر لم تتوقف، فلماذا إذاً يتوقف طلاب العلم عن التحصيل، مع أن السمة في العلم التجدد، ووسائل تحصيل العلم أصبحت ميسورة! فالتوقف عند حد معين ليس له ما يبرره.

وسمة أخرى من سمات سلفنا وهي: أن طلبهم للعلم لم يكن مقصوراً على فن معين، فلو نظرت إلى أي عالم من علماء السلف، لوجدت أنه وإن كان

مشهوراً في فن كالأصول أو الفقه أو اللغة العربية، إلا أنه واسع الاطلاع على كثير من الفنون، ولعل من الأمثلة على ذلك بعض علماء اللغة، كالأصمعي وابن الأعرابي وابن فارس وابن قتيبة؛ فمع ضلوعهم بالجوانب اللغوية والنحوية والأدبية، إلا أن لهم مشاركات واطلاعاً واسعاً على العلوم الشرعية.

ونحن نلحظ أن التخصص أخذ بُعداً آخر في هذا العصر، فتجد الطالب قد يتخصص في سن مبكرة ثم يستمر في تخصص يضيق شيئاً فشيئاً. ونحن وإن كنا في عصر التخصص التكنولوجي والشرعي، إلا أن علوم الشريعة متداخلة، ولابد من وجود أرضية علمية مشتركة من علوم متنوعة، يبنى عليها التخصص المراد، فلا غنى لطالب العلم الشرعي مهما كان تخصصه أن يكون له خلفية علمية في الأصول والحديث والقواعد الفقهية ونحو ذلك.

٢- التأثر بالعلم والعمل به:

لقد مدح الله أهل العلم بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ○ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ○ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (الإسراء:١٠٧-١٠٩).

وكان الرسول ﷺ يعلّم أصحابه رضي الله عنهم أن العلم هو ما أورث الخشوع والخشية والخوف من الله والعمل. ويدل على ذلك الحديث الصحيح الذي جاء من طريق جبير بن نفير، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ شخص ببصره إلى السماء، ثم قال: «هذا أوان يختلس العلم من الناس، حتى

لا يقدروا منه على شيء». فقال زياد بْنُ لبيد الأنْصاري رضي الله عنه: كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا! فقال: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟».

قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت، قلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء. قال: «صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس؛ الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة، فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً»(١).

والسلف رضي الله عنهم كانوا يقصدون بالعلم ثمرته التي هي العمل والتأثر القلبي والسلوكي لا مجرد التزيد والحصول على المعلومات، ومما يدل عليه قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ الْـمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِـي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٢).

فهل إنذار الناس يكون بنقل الأوامر والنواهي من غير ربطها بالآمر بها وعظمته وحبه والخوف منه؟!

إن الإنذار يكون بالعلم الذي ينفذ إلى القلب، العلم بالله تعالى، وباليوم الآخر، ومعرفة أحكام الشريعة، على سبيل العمل بها، وتعليمها، والدعوة إليها، وعبادة الله تعالى بامتثالها.

---

١. أخرجه الدارمي (٢٨٨)، والترمذي (٢٦٥٣)، والنسائي في الكبرى (٥٩٠٩)، وابن حبان (٤٥٧٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٢٢)، والحاكم (٣٣٨).
وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٩٩)، وأحمد (١٧٢٤٢)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، من حديث زياد بن لبيد رضي الله عنه.

وقد روى الخطيب البغدادي في كتابه المفيد الذي سماه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» عن ابن سيرين رحمه الله أنه قال: «كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم»[١]، وذكر أيضاً عن أبي زكريا العنبري رحمه الله أنه كان يقول: «علمٌ بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم كروح بلا جسم»[٢].

وروى الإمام الدارمي -كما تقدم- أن الحسن البصري رحمه الله تكلم في مسألة من مسائل الفقه فقال له رجل اسمه عمران المنقري: «يا أبا سعيد! ليس هكذا يقول الفقهاء، فقال له الحسن البصري رحمه الله: ويحك! ورأيت أنت فقيها قط! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه، المداوم على عبادة ربه».

فهكذا كانوا يفهمون العلم، وكانت حياتهم تطبيقاً لهذا الفهم، ولهذا لو نظرنا في سير السلف الصالحين، لوجدنا أنهم يسلمون من الأمراض التي تصاحب طالب العلم عادة؛ وذلك كمرض العُجب والغُرور، فإنها من الأمراض التي تسرع إلى طالب العلم. فما إن يتصدر للتعليم، ويلتف الناس حوله، ويطؤون أعقابه، إلا ويصيبه شيءٌ من الذهول والعجب والخيلاء، ويخرج عن طوره. وكذلك الحسد الذي قد يجعل طالب العلم يحسد غيره على ما آتاه الله من فضله، فإذا تعب في تحصيل العلم ثم رأى أن غيره حَصَّل أكثر مما حَصَّل أصابته الغيرة والحسد، إلى غير ذلك من الأمراض الكثيرة.

١. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٩).
٢. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٢).

أما في هذا العصر فإن كثيراً من المدارس، تُعنى بحشو المعلومات في ذهن الطالب، وإعطائه أكبر قدر ممكن من المعلومات والمعارف والأحكام والأدلة.
ولذلك تربي الطالب على أن الفائدة والعلم هو تحصيل هذه المعارف الفرعية، لكن حين يجلس الطالب فيسمع ترقيقاً للقلب، أو تذكيرا بالله عز وجل، أو بناءً للشخصية في جانب من الجوانب المهمة، أو تحذيراً من خلق ذميم، قد لا يشعر بالاستفادة.

فهذا أثر التربية التي تلقاها الطالب، والتي قَصَرت همَّها على حشو ذهنه بالمعلومات، دون العناية ببناء شخصيته وسلوكه وتربيته تربيةً متكاملةً.
وكذلك بالنسبة للمدرس، فالمدرس لا يؤثر في طلابه، وهذا راجع إلى ضعف مستواه العلمي والعملي والتربوي، فلا تجده يتابع طلابه في أحوالهم ومظاهرهم وعباداتهم، وكأن مهمته مقصورة على إلقاء بعض المعلومات.
وكذلك تجد الطالب لا يحرص على الاقتداء بما يرى في شيخه من السلوك والعمل والهيئة، وهذا بخلاف ما كان عليه السلف. فقد ذكر بعض العلماء عن الإمام أبي عمرو بن الصلاح رحمه الله: أنه كان يطرد من يأتي من الطلاب وليس على رأسه عِمامة، أو قد فتح أزراره، وهذا متابعة منه لطلابه رحمه الله.

ولهذا برز الانفصال بين العلم والعمل في هذا العصر، فأصبحت تجد في بعض البلاد عالماً أو طالبَ علم يخالف مظهره ما تعلمه من العلم، فمثلاً: تجده مقصراً في الصلاة، فاحشَ القول، وكذلك في بيته ومع زوجه وأولاده، لا تجد

السلوك والسمت الحسن المتناسب مع هذا العلم.

ولهذا ظهرت الأمراض والآفات التي يُخشى على طالب العلم منها، فأصبح التنافس في مجالات العلم تنافساً غير شريف؛ لأنه لو كان تنافساً في مجال تحصيل العلم لكان محموداً.

ومن صور التنافس المذموم: أن يأتي طالبُ علم أو محققٌ إلى كتاب اشتغل به غيره وتعب في تحقيقه، ومقارنة نسخه، وضبط نصوصه، وتخريج أحاديثه، فيسرق جهد غيره ويطبعه باسمه دون مراعاة لله أو خوف منه أو حياء من الناس.

وكذلك برز الحسد بين بعض طلاب العلم بسبب التنافس الدنيوي، فأصبحت تجد الطالب يقع في غيره، بل قد يقع في شيوخ لهم قدم صدق ومكانة وثقة.

وكم من كتابٍ صدر في النيل من علماءَ أجلاء أطبقت الأمة على تقديرهم! كل هذا بسببٍ غياب الفهم السلفي للعلم الذي يعتبر أن العلم هو التقوى والخشية والورع والعمل.

٣- القوة في الحق:

كان علماء السلف رضي الله عنهم يعتبرون أنفسهم قوامين على المجتمعات الإسلامية، كما هو المفهوم الشرعي؛ فالله عز وجل يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء:٥٩). وأولو الأمر هم العلماء والحكام، ولهذا كان للعالم مكانته وثقله وتأثيره، ولم يكن غريباً أن يهاب الوالي العالم ويخشاه ويمشي إليه، حتى إن من الطرائف أن الإمام الشافعي رحمه الله لما همّ بطلب العلم وذهب إلى المدينة، كان معه خطاب إلى الوالي على المدينة، يطلب

فيه أمير مكة من أمير المدينة أن يذهب إلى الإمام مالك ليوصيه بالإمام الشافعي خيراً، فلما قرأ والي المدينة الكتاب أصابه ما قرب وما بعد، وقال: إن الإمام مالك رجل نهابه ولا نستطيع أن نكلمه في أمر. فقال الإمام الشافعي: أصلح الله الأمير، لو أمرت به إلى مجلسك، أو لو دعوته ليأتي إليك! فضحك الأمير، وقال: ليته يخرج إلينا بعدما يصيبنا غُبار العقيق ونقطع الطريق إليه. فذهب إليه، وإن كان يريد الدراسة فهو يعرف موعد التدريس فيأتي إليه، فقال: إنني أريده في أمر مهم، فخرجت الجارية ونصبت كُرسيّاً للإمام مالك، فخرج بجلالته وهيبته... القصة.

فكان للعلماء شأن كبير وتأثير في المجتمعات، وسوف أبرز هذا التأثير من خلال عدد من القصص الغريبة على أذهاننا، والتي هي أشبه بالخيال لشدة بعدها عن واقعنا اليوم.

ومنها: القصة التي وقعت لأحد الصحابة الذين هم أعلم الناس بعد الأنبياء، حيث روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن مروان بن الحكم -وكان والياً على المدينة- خرج لصلاة العيد في يوم عيد أضحى أو فطر، فلما خرج اتجه إلى المنبر ليخطب، فجذبه أبو سعيد وجره، فجر مروان نفسه من أبي سعيد وارتقى المنبر وخطب، فقال له أبو سعيد: غيرتم والله! فقال: أبا سعيد، قد ذهب ما تعلم! قال أبو سعيد: ما أعلم والله خير مما لا أعلم... إلى آخر القصة[1].

---

١. صحيح البخاري (٩٥٦).

والشاهد أن أبا سعيد رضي الله عنه اتخذ هذا الموقف القوي من مروان، وبعد ذلك تكرر الموقف مرة أخرى من مروان، فخرج في يوم عيد، وذهب إلى المنبر قبل الصلاة. فقام رجل ونهى مروان عن ذلك وقال: الصلاة قبل الخطبة! فقال له مروان: قد ترك ما هنالك -أي: تُرِكَ ما تعلم-. فقام أبو سعيد رضي الله عنه وقال: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

وهذا الحديث كان دافعاً لكثير من العلماء العاملين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منهم محمد بن المنكدر رحمه الله، فقد كان هو وطلابه يخرجون فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وقد ذكر ابن أبي زيد القيرواني المالكي في كتابه «الجامع»[2] أنه ضُرِبَ هو وأصحابه في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ولكثير من العلماء مواقف شجاعة كان الله تعالى يحفظهم ويرعاهم عندما ينكرون المنكر ويأمرون بالمعروف، منهم: المنذر ابن سعيد البلوطي العالم الأندلسي، والعز بن عبد السلام في الشام ثم في مصر له مواقف مشهورة، وابن تيمية رحمهم الله.

وليست هذه المواقف مقصورة على ذلك العصر، بل حتى العصور المتأخرة،

---

١. أخرجه عبد الرزاق (٥٦٤٩)، وأحمد (١١٠٨٨)، ومسلم (٤٩)، وأبو داود (١١٤٠)، وابن ماجه (١٢٧٥)، والترمذي (٢١٧٢).

٢. ينظر: الجامع لابن أبي زيد القيرواني (٧٥).

كأمثال الشيخ العقاد -وكان من علماء الشام- والشيخ عبد العزيز البدري -من علماء العراق- لهم مواقف مشهورة، ولعلماء نجد في ذلك أيضاً القدح المعلى، فقد كان لهم مواقف مشهورة ومحمودة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المستوى الخاص وعلى المستوى العام.

لكن في المقابل مع كثرة طلاب العلم والمنتسبين إليه نجد كثيراً منهم قد آثروا السلامة، واشتغلوا إما بالعلم الذي لا تعلق له بواقع الحياة، وإما بأمور دنيوية. ومن وقع في هذه الأشياء فإن لسانه ينعقد عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

• • • •

الخاتمة

وفي الختام أشير إلى أن الأمة محتاجة إلى نهضة إصلاحية تربي طلاباً يتميزون بالصفات التالية:

أولاً: العلم المربوط بالدليل الشرعي: من القرآن والسنة والإجماع الصحيح.

ثانياً: الجمع بين العلم والعمل، بحيث يشعر الطالب وهو يحصل العلم أنه إنما يعلم ليعمل بنفسه ويعلّم غيره.

ثالثاً: معرفة الواقع ومعايشته، ومعرفة أسلوب تغييره، ومعرفة حكم الله ورسوله في كثير من النوازل التي ألمت بالناس اليوم، فلا يكادون يجدون في عدد من البلدان من يبين لهم حكم الله ورسوله فيها.

رابعاً: أن يتربى طالب العلم على الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدرك أن طالب العلم لا يليق به أن يكون معتزلاً عن الناس، بل ينبغي أن يخالطهم ويدعوهم ويصبر على أذاهم؛ فـ«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[1].

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على رسوله الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

١. أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٢٢٠)، وأحمد (٥٠٢٢)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، والترمذي (٢٥٠٧).

فهرس المحتويات